النقد العربي
بين المواهب الفطرية
والمهارات التعبيرية

بقلم

الدكتور/ علي البدري

عميد كلية اللغة العربية بالقاهرة

ورئيس قسم البلاغة والنقد

والمشرف على قسم الصحافة والأعلام سابقاً

وعميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالمنصورة

ورئيس قسم البلاغة والنقد

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين . وبعد . يقول شيخ النقاد . عبد القاهر الجرجانى رحمه الله تعالى :

الحمد لله رب العالمين . حمدَ الشاكرين . نحمده على عظيم نعمائه . وجميل بلائه !

ونستكفيه نوائب الزمان . ونوازل الحِدْثان .

ونرغب إليه فى التوفيق والعصمة . ونبرأ إليه من الحول والقوة . ونسأله يقينا يملأ الصدر . ويعمر القلوب . ويستولى على النفس . حتى يكفها إذا نزغت . ويردها إذا تطلعت .

وثقةً بأنه عز وجل الوزر والحافظ . والراعى والكالِئُ . وأن الخير والشر (وكل شَئٍ) بيده ، وأن النعم كلها مِنْ عنده .

وأن لا سلطان لأحد مع سلطانه . نوجه رغباتنا إليه . ونخلص نياتنا فى التوكل عليه . وأن يجعلنا ممن همه الصدق . وبغيته الحق . وغرضه الصواب . " والثواب " وما تصححه العقول وتقبله الألباب .

ونعوذ به من أن ندعى العلم بشئ لا نعلمه . وأن نسدى قولاً لا نلحمه ، وأن نكون ممن يغره الكاذب من الثناء . وينخدع للمتجوز فى الأطراء .

وأن يكون سبيلنا سبيل من يعجبه أن يجادل بالباطل . ويموه على السامع . ولا يبالى إذا راح عنه القول . أن يكون قد خلط فيه ولم يسدد فى معانيه . ونستأنف الرغبة إليه عز وجل . فى الصلاة على خير خلقه . والمصطفى من بريته . محمد سيد المرسلين . وعلى أصحابه الخلفاء الراشدين . وعلى آله الأخيار من بعدهم أجمعين ! وبعد :

هذه جولة فى تاريخ النقد العربى الأخاذ بالألباب !! ومنها يتبين أهمية الذوق والأحساس فى الشعور ببلاغة القول ومهارة التعبير ، أسأل الله تعالى أن ينفع بهذا الجهد المتواضع . وألا يحرمنا توفيقه ورضاه !! وأن يجعل حبلنا به موصولا . والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ،،،

الدكتور / علي البدري
عميد كلية اللغة العربية بالقاهرة
ورئيس قسم البلاغة والنقد
والمشرف على قسم الصحافة والإعلام سابقاً
وعميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالمنصورة
ورئيس قسم البلاغة والنقد
٢٠٠٣/٢/٢٠م

تأملات لغوية

النقد هو تميز الشئ عن غيره، وكثر فى تمييز الدراهم ونحوها . والنقد والنقاد والانتقاد والتنقد[١] بمعنى واحد أنشد سيبويه قول الشاعر :

تنفى يداها الحصى فى كل هاجرة

نفى الدراهيم تنقاد الصيارف

وروى نفى الدنانير .

ويقال نقده إياها نقداً . بمعنى أعطاه إياها فانتقدها . ويقال نقد أرنبته بأصبعه إذا ضربها قال خلف :

وأرنبةٌ لـــك محمـــرة ∴ يكـــاد يقطرها نقـــده

أى يكاد يشقها عن دمها .

وفى حديث أبى ذر : أن النبى ﷺ جعل ينقد شيئاً من طعامهم . أى يأكل شيئاً يسيراً . وقال أبو الدرداء : إن نقدت الناس نقدوك . وإن تركتهم تركوك . أى إن عبتهم عابوك .

وبهذا يمكن القول : إن كلمة نقد . قد استعملت بمعنى الأعطاء والتناول . أولاً

أما تمييز الجيد من الزائف فاستعمال لاحق . فالكلمة أفادت العطاء . ثم التناول ثم التمييز . وقالوا أيضاً نقدته الحية . إذا عضته وآذته .

---

(١) لسان العرب لابن منظور ج ١ ص ٤٣٦ ، القاموس المحيط ج ١ ص ٣٤١ ، المصباح المنير ج ٢ ص ١٢٥ ، مختار الصحاح ٦٧٥ ، أساس البلاغة ج ٢ ص ٤٧٠ .

وقالوا : هو من نقادة قومه . أى من خيارهم . وهو من نقده الشعر ومن نقاده . أى من فقهائه !! وهو ينقد بعينه إلى الشئ . أى يديم النظر إليه بإختلاس .

وقد ألف قدامة بن جعفر سنة ٣٣٧ هـ كتابا سماه " نقد الشعر " وبين أنه يبحث فيه عن تمييز جيد الشعر من رديئه .

ولعله أول كتاب فى اللغة يحمل عنوانه كلمة نقد !!

ولما كان النقد لا يتم إلا بذوق وذكاء . فقد قال الطائشون : إن الجهل به لا يضر . ومن ثمَّ فلا تدعو إليه حاجة . وغاب عن طيشهم هذا أن الجهل مذموم وبخاصة فى الذوق والإحساس .

وقال الآمدى عن شعر أبى تمام : فهمه العلماء والنقاد فى علم الشعر [١] وسمى ابن رشيق سنة ٤٦٣هـ كتابه " العمدة فى صناعة الشعر ونقده " وفيه باب بعنوان " التصرف ونقد الشعر " .

وقال ابن سنان الخفاجى م سنة ٤٦٦هـ إن الزبدة من العلوم الأدبية والنكتة . نظم الكلام على إختلاف تأليفه ونقده ومعرفة ما يختار منه [٢] وما يكره .

وبهذا فإن استعمال مصطلح نقد الأدب . قد ظهر فى القرن الثالث الهجرى تقريباً . ثم اطّرد بعد ذلك !!

---

(١) الموازنة بين أبى تمام والبحترى للآمدى ج ١ ص ١٩ .

(٢) سر الفصاحة لابن سنان ص ٧ تحقيق الصعيدى .

المراد بالنقد الأدبى :

ونقد الأدب معناه النظر فيه لاستخلاص عناصر الجمال التى تعلى قيمته . أو عناصر القبح التى تحط من شأنه . وفى النقد إشادة بالمجيد ونصح للمقصر .

ووجهة النقد هى الأدب شعراً أو نثراً . والنقد لابد فيه من الموازنة ، كالموازنة بين زهرتين أيهما أزكى شذى وعطراً . وأبهى لوناً ؟

وبهذا فالنقد متأخر عن النص الأدبى وجوداً . والأدب الجيد يعيش عشرات القرون كما يعيش الآن بيننا الأدب الجاهلى . وبيننا وبينه خمسة عشر قرناً . لأنه نافع ومفيد !!

قال دعبل الخزاعى :

لاتعرضَنَّ بمزح لامرئ طبن ∴ ما راضه قلبه أجراه فى الشفه
فرب قارفية بالمزح جارية ∴ مشئومة لم يـــرد إنماؤها نمت
إنى إذا قلت بيتا مات قائلة ∴ ومن يقال لـــه والبيت لم يمت

وقال أيضاً :

يموت ردئ الشعر من قبل أهله
وجيده يبقى وإن مات قائله [١]

---

(١) من أبيات يقول فيها :

نعوتى ولما ينعنى غير شامت ∴ وغير عدو قد أصيبت مقاتله
يقولون إن ذاق الردى مات شعره ∴ وهيهات عمر الشعر طالت طوائله

ولهذا سأل عمر بن الخطاب كعب بن زهير رضى الله عنهما (عمر وكعب) هل بليت الحلل التى كساها هرم أباك ؟ قال نعم فقال عمر : ولكن الحلل التى كساها أبوك هرماً لم تبل . يشير إلى مديح زهير هرماً ...

والنقاد أناسٌ ذواقون أذكياء . ساروامع الزمان . وفهموا مشاعر الناس . وتنبهوا بأذواقهم المرهفة إلى مواطن الحسن والرداءة . وسيبقى الإنسان محتاجاً إلى من يعرفه بالحسن والقبيح دائماً حتى يعيش آمناً مطمئناً ويحظى بالخير فى الأولى والآخرة ولهذا قال الله تعالى : ﴿ **وَالْعَصْرِ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ** ﴾ والتواصى تناصح من الجانبين .

وقال رجل لخلف . لا يعنينى قولك أنت وأصحابك فى الشعر ! فرد عليه بقوله : هل لو قال لك صيرفى برداءة دينار . هل ينفعك استحسانك له ؟ قال : لا . قال : فكذلك الشعر !!

مناهج النقد العربى :

على الرغم من تكاثر مناهج النقد العربى وتعدد الحديث فى كل منها . إلا أنها يتداخل بعضها فى بعض ويمكن حصرها فى ثلاثة فقط .

يقول الأديب العملاق عباس محمود العقاد [١] : إن مدارس النقد جميعاً توشك أن تنحصر فى ثلاث :

---

(١) دراسات فى المذاهب الأدبية والاجتماعية . عباس محمود العقاد ص ١١٠ : ١١٤ .

١- مدرسة التحليل النفسى :

وهى أقرب المدارس فى نقد الأدب . ونقد التراجم . ونقد الدعوات الفكرية جمعاء لأن العلم بنفس الأديب . يستلزم العلم بأحوال عصره . وثقافته وميوله العلمية والنفسيه . ولا غنى عن الرجوع إلى النفسيات مع التعويل على الاجتماعيات فى الأدب والنقد .

٢- مدرسة الأذواق الفنية :

وهى مدرسة الذوق والبلاغة . والمعانى الرائقة والتعبير الجميل وهى بحاجة ماسة إلى معرفة ذوق كل من الأديب والناقد . على السواء ومتى وصلنا إلى الذوق وصلنا إلى النفسيات . التى تختلف فى الزمان الواحد . والمكان الواحد للشخص الواحد !!

٣- مدرسة الدراسة الاجتماعية والتاريخية :

وهى تدرس الدعوات الاجتماعية والمبادئ التى تحكم المجتمعات البشرية والأدب صورة من الحياة . والأديب له علاقة قوية بالزمان والمكان الذين يعيش فيهما . فلابد أن يعرف الناس بالظروف الاجتماعية التى كان يعيشها الناس فى عصره ومع التعويل على الاجتماعيات . فلا غنى عن معرفة نفسيات الأدباء فى كل عصر .

إن الناقد الذى توافرت له أداة النقد . من المعرفة . واللغة والأمانة . والاطلاع على مراجع النقاد . هو أديب قادر على الانتاج . لأنه عارف بالقدرة التى تنتج المحاسن ولا يحتاج الناقد إلى من يعلمه مواطن العيوب ... لأن أجهل الجهلاء بالبناء قد يدرك عيوب القصور

والصروح كما يدرك عيوب الخصاص والأكواخ .

أما ما يروج له دعاة النقد بغير أداته فإنهم فضوليون على موائد الأدب لا يحسنون الطهى ولا يبذلون نفقة الطعام . ولا تستجاب عندهم دعوة الضيوف .

والنقد الذى لا تشترط فيه اللغة ولا العروض ولا المعنى ولا القياس المطرد فى منطق الأذواق والعقول هو لحاج مهزول مجهول لا معقول ولا مقبول .

* * * *

مهمة النقد العربى

إن مهمة النقد الأدبى وغايته تكاد تنحصر فى تقويم العمل الأدبى فنياً . وبيان قيمه الموضوعية والتعبيرية والشعورية . وبيان مكانه فى خط سير الأدب . وتحديد ما أضافه إلى التراث الأدبى فى لغته . وفى الأدب العالمى كله . وقياس مدى تأثره بمن حوله . وتأثيره فيه . وتصوير سمات صاحبه وخصائصه التعبيرية والشعورية . وكشف العوامل النفسية التى اشتركت فى تكوينه والعوامل الخارجية التى أثرت فيه .

ولا يجوز أن يُحمل النقد العربى . على مناهج أجنبية عنه . لها ظروف تاريخية واجتماعية غير ظروفه ولا يجوز للناقد العربى المخلص أن يَستَعِير معايير نقد الأدب العربى من النقد الأوروبى وتاريخه . ولا يجوز الدخول مع أبواق الثقافة الأوروبية فى جدل يضر ولا ينفع .

فإن أصول النقد ليست قواعد ثابتة ولكل ناقد طريقه . ولمؤرخى المذاهب النقدية أن يضعوا الوصف المناسب لهذا الطريق أو ذاك . والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

أهمية الوجهة النفسية فى النقد :

الشعر العربى خصوصاً والأسلوب الأدبى عموماً هما موضوع النقد العربى والأدب مقدمة للنقد .

والأدب هو التعبير عن تجربة شعورية فى صورة بليغة مؤثرة !!

وعلى كثرة تعريفات الأدب فهى غير وافية بتبيان جميع خصائص الأدب بتعريف جامع مانع .

والنفس الأنسانية الشاعرة إذا جنحت إلى الملذات والشهوات دون رادع أو ضابط أو حياء مما يشين فإنها قد تأتى بنظم بليغ وتقع فى نفس الوقت فيما يعيب صاحبه وما يشينه وفيما يصور لهفته على شئ حرمت منه نفسه فيتألم كثيراً على شهوتى بطنه وفرجه وهو يشاهد لذائذ البطون والجوارح على حد سواء . ولو أنه جنح إلى الصبر والتقوى لكان خيراً له . ولو اكتفى بما أحل الله له لكان خيراً له أيضاً ذلك لأن العبودية للشهوات خُلُقٌ ردىء فى النفس الإنسانية .

ولنا أن نتأمل هذه الأبيات لابن الرومى : يقول :

أَجَنَّتْ لَكَ الْوَجْدَ أَغْصَانٌ وكُثْبَانُ ∴ فِيهِنَّ نَوْعَانِ تُفَّاحُ ورُمَّـــانُ

وَفَوْقَ ذَيْنِكَ أَعْنَابٌ مُهَدَّلَـــــةٌ ∴ سُود لَهُنَّ مِنَ الظَّلْمَاءِ أَلْوَانُ

وَتَحْتَ هَاتِيكَ عُنَّابٌ تلـــوحُ بِهِ ∴ أَطرافُهُنَّ قُلُوب الْقَوْمِ قِنْوَانُ

غُصُونُ بَانٍ عَلَيْهَا الدَّهْرَ فَاكِهَةٌ ∴ وَمَا الفَوَاكِهُ مِمَّا تحْمِلُ البَانُ

وَنَرْجِسُ باتَ سارى الطَّلّ يضْرِبهُ ∴ وَأُقحوان منيرُ النور ريَّـــانُ

أُلفن مِنْ كُلّ شَىءٍ طيبٍ حَسَنٍ ∴ فَهُنَّ فَاكِهَةٌ شتـــى وَرَيْحَانُ

ويبدو التصوير البلاغى فى الأبيات وهو واضح لكل متأمل . فالأغصان والكثبان والتفاح والرمان استعارات للقوام .

والكفَل . والخد والنهد والأعناب السود مستعارة للشعر .

والعناب للأنامل . وعاد على ماتحمله هذه الغصون . ففصله عن جميع الفواكه بأسلوب الاستفهام التعجبى ؟ . .

واستعار النرجس للعيون والطل للدموع . والأقحوان للأسنان النظيفة البراقة . وباله من شاعر ذواق !! .

ثم يشير إلى استجماع الحسن كله فى البيت :

" **أُلفن مِنْ كُلّ شَىءٍ طيبٍ حَسَنٍ** " فهن للنفس الأنسانية كالفواكه المتعددة وكالريحان . فالنفس تستريح راحة نفسية واضحة إلى هذا المشبه به . وكذلك المشبه إذا كان ذلك وفقاً للمعايير الخلقية والنفسية والبيانية الصحيحة .

ولعل ابن الرومى قد استفاد من قول أبى نواس :

فأسبلت لؤلؤاً مِنْ نَرجِسٍ فَسَقَت ∴ وَرْداً وَعَضَّتْ على العُنَّابِ بالبردِ

وإذا انتقلنا من هذه الصورة النفسية المؤثرة إلى صورة نفسية أخرى يصف فيها الشاعر نفسه (ابْن الرومى) رياضاً مزهرة فيقول فى مهارة تعبيرية تهز النفس الأنسانية هزاً عميقاً :

بِرِيَاضٍ تَخَايَلُ الأَرْضُ فِيها ∴ خُيَلاَءَ الفَتَاةِ فِى الأَبْرادِ
مَنْظَرُ مُعْجِبُ تَحِيـــةُ أَنْفٍ ∴ رِيحُها رِيحُ طِيِّبِ الأَوْلاَدِ

فالرياض تتخايل (استعارة مكنية) وهو يشبه تخايل الأرض بخيلاء الفتاة فى الثياب اللافتة ! .

ومنظر الرياض المزهرة يحيى الأنوف بالروائح الزكية التى تشبه ريح طيب الأولاد .

إنها صور تستريح إليها النفس الإنسانية راحة تامة .

والفواكه فى الرياض مع رقة الماء والجو هى الحياة . ولولاها لما بالى الشاعر الموت ولا أحب الحياة .

وهكذا تختلط اللذائذ فى حسه ونفسه . وتتوحد الرياض الجميلة واللذائذ الشهية فى المتعة النفسية التى يحس بها الشاعر فيصورها فى بلاغة وسحر بيان ومهارة فى التعبير .

* * * *

الشعر والحياة

كان الشعر العربى فى جميع عصوره سجلاً للحياة خيرها وشرها . حلوها ومرها . ولا ينتطح فى هذا شاعران ! .

ولقد أحس المتنبى مثلاً بقسوة معاصريه وضراوة حسدهم له !! ونحن الآن مع شيخ الشعراء فى عالم يموج بالصراع والكفاح فلا رحمة ولا بر ولا تحرج ولا إبقاء . يصور هذا بقوله : (يصور الضراوة فى القسوة) :

وَمَنْ عَرَفَ الأَيَّامَ مَعْرِفَتِى بِهَا ∴ وَبالنَّاسِ رَوَّى رُمْحَــه غَيْر راحِمِ

فَليس بِمَرْحُومٍ إِذَا ظَفِرُوا بِهِ ∴ وَلاَ فِى الرَّدَى الجَارِى عَلَيهم بِآثِمِ (١)

ويقول :

ولا تحسبن المجد زقا وقينة ∴ فما المجد إلا السيف والفتكة البكر

وتضريب أعناق الملوك وأن ترى ∴ لك الهبوات السود والعسكر المجر

وتركك فـــى الدنيا دويا كأنما ∴ تداول سمع المرء أنمله العشر (٢)

وقوله :

نَثَرْتَهُمُ فَوْقَ الأَحَيْدِبِ نَثْرَةً ∴ كمَا نُثِرَتْ فَوْقَ العَروسِ الدَّراهِمُ (٣)

---

(١) دعوة إلى إرواء الرماح بلا رحمة من دماء الحاسدين . لأنهم إذا ظفروا بالمحسود لن يرحموه ولا ينبغى للمحسود أن يرحم الحاسدين . ولا يأثم إذا جرى الردى عليهم . هذه رؤية شيخ الشعراء .

(٢) الزق : وعاء الخمر . والقينة : المطربة . الفتكة : البطشة والاغتيال . البكر : التى لم يتقدمها مثلها . الهبوات : الغبرات . المجر : الكثير .

(٣) يشبه نثر الأعادى بغير انتظام على جبل الأحيدب بنثر الدراهم فوق العروس . على نفس الصورة .

وقوله :

تَصْفُو الحَيَاةُ لِجاهِلٍ أوْ غافِلٍ ∴ عَمَّا مَضَى مِنْهَا وَمَا يَتَوقعُ

وَلِمَنْ يُغَالِطُ فِى الحقائِقِ نفْسَهُ ∴ وَيَسُومُهَا طَلَبَ المُحَالِ فتطمعُ (١)

وقوله :

ذُو العَقْلِ يَشْقَى فِى النّعِيمِ بعَقْلِه ∴ وأَخو الجَهَالةِ فِى الشَقَاوةِ ينْعَمُ (٢)

وقوله :

وَلاَ تَشْكَنَّ إلى خَلْقٍ فتُشمِتَهُ ∴ شَكْوىَ الجريحِ إلى الغِربَانِ وَالرَّخَمِ

وقوله :

غَابَ الْوَفَاءُ فَمَا تَلْقَاهُ فِى عِدةٍ ∴ وَاعْوَزَ الصِّدْقُ فى الأَخْبَارِ وَالْقَسمِ (٣)

إن تأمل مثل هذه الروائع الشعرية مما يقوى الذوق والشعور والاحساس فى النفس الأنسانية !!

ويبين بجلاء أن علاقة المتنبى بخصومه كانت علاقة مقاتل بمقاتل !!

يقول مخاطبا سيف الدولة ومصورا قسوة حاسديه كما أسلفنا ...

---

(١) إن الحياة جهاد ولا تصفو إلا لجاهل أو مغفل . أو لأحمق يطلب مالا يكون بحال .

(٢) العاقل يشقى فى جوف النعيم لكثرة أفكاره . والجاهل لا يحس بفشله فيضحك وينعم وهو فاشل مذموم .

(٣) شكواك إلى الآخرين كشكوى الجريح إلى الطيور الجارحة سوف يستغلون ضعفك ويقتلونك تقتيلا . ولن تلقى الوفاء فى العدد الكثير من الناس ولا صدق فيهم ولو أقسموا .. إنها نظرات حزينة حقاً !

يَامَنْ نُعيت عَلَى بُعْدٍ بِمَجْلسه ∴ وكُـلٌ بِمَا زَعَمَ النَّاعُـونَ مُرْتَهَـنُ
كَمْ قَدْ تلْتُ وَكَمْ قَدْمتُّ عِنْدَكُمُ ∴ ثُمَّ انتَفَضت فَـزال القبـر والْكَفَـنُ
قَد كَانَ شَاهد دفنى قَبْل قَوْلِهُمُ ∴ جَمَاعَةٌ ثُمَّ ماتـوا قَبْلَ مَـنْ دَفَنـوا
مَاكُلّ مايَتَمنى الْمَرْءُ يُدْرِكُـهُ ∴ تأتى الرياحُ بِمَا لاَ تَشْتَهِى السُّفُنُ (١)

إنه يصور بشاعة الحاسدين بمهارة تعبيرية مؤثرة ونفس منعمة بالأسى والأوجاع .

وقوله :

وَمِنَ الْعَدَاوَة مَـا يَنَالُك نَفْعُـهُ ∴ وَمِنَ الصَّدَاقَة مَا يَضُر ويُؤْلِم
وَالذلُّ يُظْهِرُ فى الذَّلِيل مَـوَدَّةً ∴ وَأَوَدُّ مِنْهُ لِمَـن يَوَد الأَرْقَـم
وَالظُلْمُ مِنْ شِيم النفُوسِ فَإِنْ تَجِدْ ∴ ذَا عِفَـةٍ فَلِعلَّـةٍ لاَ يظْلِـمُ (٢)

وهذه تأملاته فى الصداقة والعداوة . والمذلة والمظالم . والكون والحياة . ونفوس الحاسدين .

وقبله قال جرير يصور قسوة الشعراء كما سلف !!

عَوَى الشُّعَرَاءُ بَعْضُهم لِبَعْضٍ ∴ عَلَـىَّ ، فَقَدْ أَصَابَهُمُ انْتِقَامُ

---

(١) يخاطب سيف الدولة . وصدر البيت كناية عن ممدوحه . وعجزه . كناية عن الموت . (كل أحد مرتهن بعمره) . وكم خبرية تفيد أن حاسدى الشاعر كثيراً ماأخبروا كذبا بموته أو قتله . وظهر كذبهم وقبلهم كذب آخرون . فادعوا أنهم دفنوه بأيديهم . ثم ماتوا قبل المنبى ودفنوا قبله . إنهم يشتهون موته . وما كل مايتمنى المرء يدركه . ما أشبههم بربان السفينة التى تأتيه الرياح بعكس مايريد .

(٢) العدو العاقل خير من الصديق الجاهل . . والذليل يحب الثعبان الأرقم أكثر من حبه لمن أذله . ولا حب لهذا ولا لذالك ! وكل الناس ظالمون . وتلك فلسفته في الحياة .

إِذَا أَرْسَلْتُ قَافِيةً شـــــرودًا ∴ رَأَوْا أُخْرى يُحَرِّقُ فَاسْتَنَامُوا
فَمُصْطَلَمُ الْمَسَامِعِ أَوْ خَصِـــيٌّ ∴ وَآخَرُ عَظْمُ هَامَتِه حُطَامُ (١)

وقال لعدى بن الرقاع عندما قبل رأس الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان يطلب منه أن يجيره من جرير :

جَيِّ الهدملة من ذات المواعيس ∴ فألقنو أصبح قفرا غير مأنوس
أقصر فإن تزارًا لا يفاخرهم ∴ فـــرع لئيم وأصل غير مغروس
وابن اللبون إذا ما لزقى قرنٍ ∴ لم يستطع صولة البزل القناعيس (٢)

وقال الشاعر الأموى ابن خليفة الذى قطعت يده فى سرقة . قال للفرزدق يغيظه . من القائل :

هُوَ القين وابْنُ الْقَيْن لاَ قَين مِثْلُهُ ∴ لِفَطْحِ الْمَسَاحِى أَوْ لِجَدْلِ الأَدَاهِمِ

فقال له الفرزدق فى إحساس نادر : هو القائل :

هُوَ اللصُّ وَابْنُ اللِّصِّ لاَ لِصَّ مِثْلُهُ ∴ لِنَقْبِ جِدَارٍ أَوْ لِطَرِّ دَارَهِم

والبيتان لجرير . والفرزدق قد دفع فيهما الشر بمثله . وهذه صور متنوعة لضراوة الشعر فى الحياة !

ونعود إلى المتنبى فى نص يصور فيه نفسه التى لا ترتاح إلا إلى قتل الأعادى فيقول :

---

(١) عوى الشعراء استعارة مكنية يشبههم بالذئاب .

(٢) الهدملة : وذات المواعيس والقنو أماكن . وابن اللبون (المفطوم) إذا مادفع فى سباق لا يستطيع مجاراة الفحول . (استعارة تمثيلية) .

وما سكَنِى سِوَى قَتْلِ الأَعَادِى ∴ فَهَلْ مِنْ زَوْرَةٍ تَشْفِى القُلُوبَا

وهو يتمنى إطعام الطيور ولحشرات من لحومهم فيقول :

تظَلُّ الطيرُ مِنْهَا فِى حَدِيثٍ ∴ تَرُدُّ به الصَّراصِرَ والنعيبَا

ويصف الطيور بأنها تخضبت من دماء أعدائه فيقول : " إن الطيور لبست دماء أعدائه ! " .

وقَدْ لَبِسَتْ دِمَاءَهُم عَلَيْهِمْ ∴ حِدَادًا لَمْ تَشُقَّ لَهُ جُيُوباً

ويصور ضربهم بالرماح التى اختلطت بعظامهم وأن خيول الممدوح خاضت فى أعدائه وكأنها كانت قديماً تسقى الحليب فى جماجمهم . فداستها مع عظام صدورهم . ويقول عن نفسه إنه فتى ترمى الحروب به الحروب يقول :

أَدَمْنَا طَعْنَهُمْ والقَتْلَ حَتَّـى ∴ خَلَطْنَا فِى عِظَامِهِم الكُعُوبَا

كَأَن خُيُولَنَا كَانت قَدِيمـاً ∴ تُسْقَّى فـى قُحُوفِهِم الحلِيبَا

فَمَرَّتْ غَيرَ نَافِـرَةٍ عَلَيْهِمْ ∴ تَدُوس بِنَا الجَمَاجِمَ والتُرِيبا

يُقَدِّمُهَا وَقَد خُضِبتْ شَوَاهَا ∴ فَتى تَرْمى الحُرُوبُ بِه الحُرُوبا [1]

---

(١) الكعوب : مابين الأنبوبتين من الرمح . القحوف : جمع قحف وهو العظام التى فى أعلى الجمجمة . والتريب: عظام الصدر. الشوى : الأطراف . والمراد بالفتى : الشاعر نفسه . وقد نجح المتنبى فى تصوير النفس الإنسانية فى حربها . ولكن إذا جاز هذا فى عدو الوطن والدين . فلا يجوز أبداً أن يكون مثل هذا سلوكاً داخل المجتمع المسلم وإلا لأكل الناس بعضهم بعضاً . وارتدوا ردة جاهلية مشينة مدمرة !! .

وإذا انتقلنا من تصوير القسوة فى الدنيا من المتنبى إلى أبى العلاء المعرى الذى ساءت نظرته إلى الكون والحياة لدرجة رفضه الزواج خوفاً من أن يجنى على ذريته . فلم يتزوج وأطلق عليه رهين المحبسين (العمى والدار) يقول :

هَذَا جَنَاهُ أَبِى عَلَىَّ ∴ ومَا جَنَيْتُ عَلَى أَحَدِ

ويقول :

وَقَدْ غَرِضْتُ مِنَ الدنْيَا فَهلْ زَمَنِى ∴ مُعْطٍ حَيَاتى لِغرّ بَعْدُ مَا غَرِضا

جَرَّبْتُ دَهْرِى وأهليه فَمَا تَرَكَتْ ∴ لِى التجَارُبُ فى ودّ امْرِئٍ غَرَضَا

ونقول له : ماهكذا ياسعد تورد الأبل !! فما استحق أن يولد من عاش لنفسه !!

ويصور المعرى الحياة وكأنها كلها صور متشاكسة من المظالم والخداع والشر والنفاق واليأس والظلمات التى بعضها فوق بعض . ويرى المعرى فى بعده عن الأنصاف حتى لنفسه أن الحياة شر لا خير فيه ولا رجاء فى ماضيه ولا فى حاضره ولا فى مستقبله . فيقول :

ظُلْمُ الحَمَامَةِ فِى الدنْيا وإنْ حُسبت ∴ فِى الصَّالِحَات كَظُلْمِ الصَّقْرِ والبَازِى

ويرى أن ظلم السباع كظلم الظباء يقول :

يُغَادِرُ غَابَه الضَرغَامُ كَيما ∴ يُنَازِعَ ظَبْى رَمْلٍ فى كنَاسِ

سَجَايَا كُلُّها غَـدْرُ وخبـثُ ∴ توارَثها أُنَاسُ عَـنْ أُنَاس

إن الروح الخائفة . والنفسية المفزعة من كل شئ . قد كان يسعدها ويريحها الاعتصام بحبل الله المتين . والتفكر مثلا فيما قصه الله تعالى عن نبيه يعقوب مثلاً الذى فقد ابنه يوسف عليهما السلام !! وبعد أكثر من أربعين عاما لا ييأسْ بل يقول : ما حكاه الله تعالى : ﴿ **يَابَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ** ﴾ سورة يوسف آية (٨٧) ، وقوله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴾ سورة الرعد آية (٢٨) ، ونعمة الأمن مِنْ أجل النعم . يقول الله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ** ﴾ سورة الأنعام آية (٨٢) .

فلو اعتصم الشعراء بربهم وصبروا واتقوا لما وقعوا فى هذا العذاب النفسي الأليم . الذى صورته أشعارهم العنيفة المؤثرة !!

وإذا تأملنا رجلا كالحسن بن هانئ . يصور الحياة موتاً وخراباً . وتراباً ويهاجم الموت بلا روية !!

ويهاجم العفة والفضيلة . وحتى الشعراء الجاهليين يهاجمهم وسيأتى ذلك مفصلاً . رأيناه تائها ضليلاً !! ولكنه بارع فى تصوير مختلف جوانب الحياة !

والواقع أن فجور أبى نواس وردوده على الشعراء الجاهليين وراءه أفكار شعوبية بغيضة وعقد نفسية رهيبة . إنه يكره البناء والتعمير ! وكراهيته للموت أشد . يقول :

لدوا للموت وابنوا للخراب ∴ فكلهم يصير إلى ذهاب
لمن نبنى ونحن إلى ∴ نعود كما خلقنا من تراب
ألا يا موت لم أر بُداً ∴ قسوت فما تكف وما تحابى
كأنك قد هجمت على حياتي ∴ كما هجم المشيب على الشباب

وروى فكلكم . بدل فكلهم . وهو متشائم لا يبنى له داراً فى الدنيا . وهو يخشى الموت الذى سيهاجمه كما هجم المشيب على الشباب . وما ذلك إلا بسبب العبودية للشهوات !! ويقال : إن لديه عقدة أو ذيب . فقد مات أبوه وهو صغير وساء سلوك أمه !! وكان ما كان . وساءت نظرته للأخلاق الفاضلة !! (١) .

ويقول ابن الرومى :

أذاقتنى الأسفار ماكره الغنى ∴ إلى وأغرانى برفض المطالب
فأصبحت فى الأثراء أزهد زاهد ∴ وإن كنت فى الأثراء أرغب راغب
ومن راح ذا حرص وجبن فإنه ∴ فقير أتاه الفقر من كل جانب
تنازعنى رغب ورهب كلاهما ∴ قوى وأعيانى اطلاع المغايب
فقدمت رجلاً رغبة فى ريبة ∴ وأخرت رجلاً رهبة للمعاطب
ألا من يرينى غايتى قبل مذهبى ∴ ومن أين والغايات بعد المذاهب

إن نعمة تسليم الأمر إلى الله عز وجل من أجل النعم . وأين ذلك من شراهة الشعراء ؟

---

(١) نفسية أبى نواس ... عباس محمود العقاد ص ٤٠ وما بعدها .

هذا موقف شعورى غاية فى الدقة . حافل بالتأثر والانفعال . فمشقة السفر كرهت الغنى إلى الشاعر . فزهد فيه مع رغبته فيه . والرجل الحريص الجبان . أفقر الناس وإن كان غنياً . نفسية الشاعر ممزقة بين السلامة ومواجهة أخطار السفر . وهو يتمنى معرفة نتائج السفر مقدماً . ثم يستبعد ذلك لأن النتائج لابد أن تسبقها مقدمات !

كانت نفس الشاعر كغيرها من نفوس البشر مزيجا من المشاعر والأحاسيس والدوافع الخيرة والشريرة . وليس هناك خبر مطلق فى غير الوحى الآلهى . ولا شر مطلق فى غير مناهج الشياطين . ونفسية الشاعر هنا مضطربة غير مستقرة !! ولذلك فهو يعبر عن هذا الإضطراب ولا ينسى إرسال الحكم المفيدة ! ويتمنى ما لا يكون . ثم يعود إلى الحق والصواب !! .

* * * *

الشعر والعلم

إن التبحر فى المعرفة شئ نافع . وكان أبو تمام غزير القراءة واسع المعرفة . والعلم فى شعره . أظهر منه فى شعر البحترى مثلاً .

وإذا كان الشعر تصويرا للأحساس لا للأفكار . وأنَّ الأحساس الصادق والانفعال القوى خير من الغوص وراء المعانى العويصة . وليس أبو تمام بأكثر إحساساً من البحترى . ولكنه أكثر منه علماً وأعمق نظراً . وأكثر تفلسفاً وجريا وراء البديع . ولا علاقة للشعر بهذا التكلف .

وعلى هذا فإن جودة الشعر لا علاقة لها بالعلم . وقد كان الخليل ابن أحمد شاعراً عالماً . وكان الأصمعى كذلك . وما بلغ بهما علمهما الغزير طبقةً من كانوا فى زمانهما من الشعراء . كمروان بن أبى حفصة . وبشار وأبى نواس . وبهذا فلا مزية لأبى تمام على البحترى بعلمه . ولا مزية له من هذه الجهة على أى شاعر !!

ولعل سعة علم أبى تمام باللغة قد أفسدت شيئاً من شعره . فقد كان يدخل شيئاً من الغريب فى شعره كقوله :

قدك اتئد أربيت فى الغلواء

ويقول ابن قتيبة : إن أشعار العلماء . ليس فيها شئ جاء عن سماح وسهولة . كشعر الأصمعى . وابن المقفع . والخليل بن أحمد . ونحوهم !

ولكن ليس كل علم ضاراً بالشعر . فقد شهد أبو على الفارسيِّ بتضلع المتنبى فى اللغة . وتضلع الشاعر فى العلم يضفى على شعره معرفة بأسرار الحياة . وتقلبات القلوب .

ولو أن أبا تمام جرى مع طبعه وترك التعمق والتكلف لكان شيخ الشعراء فى القرن الثالث كله . والشاعر بحاجة ماسة إلى صدق الشعور وإرهاف الحس أكثر من حاجته إلى العلم الغزير . والعلم يقوم على قواعد ثابتة وهذا فى جميع العلوم .

على حين يكون الشعر فناً طليقاً . ويجب أن يكون كذلك . ولا ينبغى أن توضع قيود على الشعراء إلا قيود عقيدتهم . والفن الشعرى الذى يجيدونه .

والشعر العلمى لغة العقل . كألفية ابن مالك فى علمى النحو والصرف مثلا ، على حين أن الشعر الحقيقى لغة العاطفة ولغة الخيال الجيد . ويجب أن يبقى كذلك ! لتبقى له متعته وصفاؤه .

غاية النقد الأدبى :

إن غاية النقد الأدبى موجهة أساساً إلى تقويم العمل الأدبى . وبيان قيمته الموضوعية . على قدر الإمكان . والذاتية فى النقد . هى أساس الموضوعية فيه .

وليس من الصواب محاولة تجريد الناقد من مشاعره الخاصة . أثناء نظره فى العمل الأدبى . من ذوقه الخاص . وميولة الشخصية . وتجاربه الشعورية . إن التخلص من هذا كله بعيد المنال وإن تشدق

المتشدقون بالتجرد والأنصاف والموضوعية . وما إلى ذلك . إن غاية النقد العربى العدل والأنصاف فى الحكم على العمل الأدبى .

وحسب الناقد أن يكون ذواقاً مرهف الأحساس . حتى يتذوق ويتأثر ويحكم حكما بعيداً عن الهوى .

موضوعات النقد :

تعددت موضوعات النقد منذ بدأ النقد العربى يتجه إلى الموضوعية . وهذه الموضوعات قد يرتبط بعضها ببعض ارتباطاً يؤدى إلى الإزدواجية فى الدراسة وهذه الموضوعات هى :

قضية الموازنة بين نصين أو شاعرين – قضية اللفظ والمعنى – قضية الطبع والصنعة – قضية القلة والكثرة فى الشعر – قضية الصدق والكذب فى الشعر – قضية السرقات الشعرية – قضية عمود الشعر – قضية العلاقة بين الشعر والأخلاق الاسلامية أو الشعر والدين .

وفى أثناء دراسة هذه القضايا يتعرض الدارسون لتعريف الشعر . والنقد. والأدب والبديهة والروية. وبواعث الشعر. والوضوح والغموض. وأغراض الشعر . والطبع النفسى للشاعر والناقد . والفرق بين الشعر العربى وغيره . وبين الشعر والنثر . والعلاقة بين موضوع القصيدة ووزنها العروضى .

موضوعات الأدب :

موضوعات الأدب كلها حركات نفسية شعورية . فى الشعر أو النثر (القصة . الأقصوصة . الرواية . التمثيلية . الترجمة . الخاطرة .

المقال . البحث) .

وينبغى أن يكون الأديب صادقاً مع نفسه وإلا جاء بكلام غير مقبول ولكل واحد من موضوعات الأدب هذه أسسه التى يقوم عليها . ومقاييس جودته أو رداءته . ونوعية المعانى التى تعرض من خلال هذه الموضوعات . وصفة الألفاظ والجمل والأساليب التى يتكون منها كل موضوع . وعلى قدر المواهب الذاتية والأخلاص فى الجهد يكون نجاح الأديب أو إخفاقه . وإجادة الفن الأدبى لازمة للأديب قبل أن يتحدث !!

وقد تجلى هذا مثلافى قول عمرو بن كلثوم :

مَتَى تَنْقُلْ إِلَى قَوْمٍ رَحَانَا ∴ يَكُونوا فِى اللِّقَاءِ لَهَا طَحِينَا

ويقول ابن قتيبة : إن للشعر دواعى تحث البطئ وتبعث التكلف منها الشراب . والطرب . والطمع . والغضب . والشوق والحرب ونحوهما .

ويقول أبو يعقوب الخزيمى : إن المديح دائما أقوى من الرثاء لأن باعث الرجاء أقوى من باعث الوفاء . وكان جرير وابن قيس الرقيات . مع ابن الزبير رضى الله عنهما فلما دالت دولته تحولا إلى الأمويين . وقال لا أجود المدائح فيهم . وقيل إن الثانى ظل وفيا ... وكان الكميت هاشمى الهوى . فلما صار أمويا قويت شاعريته بسبب قوة أسباب الطمع يقول محمد بن القاسم الهاشمى :

إنَّ الدَّراهِمَ فى المَواطِنِ كُلِّهَا ∴ تكْسُو الرِّجَالَ مَهَابَةً وَجَلالاً .
فَهِى اللِّسَانُ لَمِنْ أَرَادَ فَصَاحَةً ∴ وَهِىَ السِّلاحُ لمنْ أَرَادَ قِتَالاً .
مَنْ كَانَ يَمْلِكُ دِرْهَمَيْنْ تَعَلَّمتْ ∴ شَفَتَاهُ أنــواعَ الكَــلامِ فقَالاَ .
وَتَقَدَّمَ الفُصَحَاءَ فَاسْتَمَعُوا لَهُ ∴ وَرَأَيْتَهُ بَيْنَ الــورَى مخْتَالا .
لَوَلا دَرَاهِمُه الَّتِى فِى كِيسِه ∴ لَرَأَيــتَّه شَــرَّ البَلِيَّة حَــالا .
إنَّ الغَنِّــىَّ إذَا تكلَّــمَ كــاذِباً ∴ قَالُواصَدقْتَ وَمَا نطقْتَ مُحَالا .
وَإذَا الفقِيرأَصابَ قَالُوالَمْ يُصِبْ ∴ وَكَذْبتَ يَا هَذَا وَقَلْتَ ضَلالاً .

ويقول البحترى :

للَّه يُسْهِرُفِى مَدِيــحكَ طَرْفَهُ ∴ مُتَمَلْمِــلاً وَتَنَــام دُونَ ثَــوابِهِ
يَقْطَان تحلُ الكَلامَ كَــأنَّهُ ∴ جَيْشنٌ لَدَيْهِ يُرِيدُ أَن يَلقَى بِــهِ

وقال آخر :

إذَا كُنْتَ فِي حَاجَةٍ مُرْسِلاً ∴ وَأَنْتَ بِهَــــا كَلِفُ مُغْرَمُ
فَأَرْسِلِ حَكِيماً وَلاَ تَوصِهِ ∴ وَذَاكَ الحكِيمُ هُوَ الدرهَمُ

وقريحة الشاعر تقوى فى فن دون آخر ، فذو الرمة مثلاً من أحسن الناس تشبيها ، وأجودهم فى وصف البادية والرمل . فإذا مدح أو هجا خانه طبعه . ولا تغفل المواهب الفطرية فى هذا المجال . فالعرب مشتركون لساناً ولغة . وتفضل القبيلة أختها فى الفصاحة . ويكون الشاعر فحلاً مفلقاً . وقريبه وجاره بكيا مفحما . ومرد ذلك إلى اختلاف الناس فى الذكاء والطبع وصفاء القريحة . وهذه المسائل تعم الشعراء جميعا فى المشارق والمغارب فى جميع العصور .

وترى القريحة المتوقدة دائماً أدعى إلى روائع الشعر والنثر . وكذلك الاختلاف أيضاً فى الصلابة والرقة . مرده إلى الطبائع والأخلاق .

فالغليظ الجافى كز الألفاظ وعر الخطاب ، ومن بدا فقد جفا ومن سكن الحواضر غلبت عليه الرقة واللين . ولهذا كان شعر عدى بن زيد وهو جاهلى أسلس من شعر الفرزدق وهو أموى . لأن عديا سكن الحواضر والأمصار . وبعد عن جفاء الأعراب . وكثيراً ماتجىء الرقة من العشاق المتيمين . فإذا ماالتقت الدماثة والصبابة فقد جمعت الرقة من أطرافها .

وللناس أحوال مختلفة يقولون فيها جيد الشعر وأوقات أخرى تجمد فيها القريحة بقول الفحل المضرى الفرزدق : ربما تمر عليه الساعات وخلع ضرس أهون عليه من عمل بيت .

وبعض الناس مطبوع على الشر كما فى بعض الوزراء الذى عين عدة ولاة للكوفة ثمناً لرشاوى قدمت إليه . ثم دفع المنصب لأكثرهم رشوة فقال البحترى :

وَزِيرٌ لاَ يَمَلُّ مِنَ الرقَاعة ∴ يُوَلى ثُمَّ يَعْزِلُ بَعْدَ سَاعـــة
وَيُدْنِى مِنَ تَعَجَّلَ مِنْهُ مَالُ ∴ وَيُقْصى مَنْ تَوَسَّلَ بالشَّفاعَة
إِذَا أَهْلُ الرشا صَارُوا إليه ∴ فَأحظى القَوْمِ أوْفَرهُمْ بِضَاعَةَ

وهذا شئ مؤسف . ولا علاج له إلا العمل على تذكير الناس بيوم الجزاء . وأن الله عز وجل يجازى كل نفس بما كسبت . ولا تخفى

عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء . وأن البغى مرتعه وخيم . وَاللَّهُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

ويقول بكر بن النطاح : الشعر مثل عين الماء . إِنْ تَرَكْتَهَا انْدَفَنَتْ . وإِنِ اسْتَهْتَلْتَهَا هَتَنَتْ . وهو ينصح بقراءة أشعار الآخرين . فإنها تبعث الشاعرية وتوقظ القريحة الموجودة . . .

وقال ذو الرمة : إن الحلوة مع الأحباب . تفتح المنغلق من أبواب الشعر .

وقال كثير: كنت إذا عسر على الشعر . أطوف فى الرباع المخيلة والرياض المعشبة فيسهل علىّ أرصنه . ويسرع أحسنه .

وقال الأصمعى : ما اسْتُدْعِىَ شارد بمثل الماء الجارى . والشرف العالى والمكان الخالى . أو الحالى أو الجالى . وقيل : ثلاثة أشياء يذهبن الحزن . الخضرة والماء والوجه والحسن . والأماكن أحلاها أجلاها وأخلاها !

وكان جرير إذا أراد أن ينظم قصيدة . نظمها ليلا . ويشعل سراجه . ويعتزل وربما علا السطح وحده فاضطجع وغطى رأسه رغبة فى الخلوة بنفسه . فعل ذلك فى القصيدة التى أخزى بها بنى نمير . . . وكان يصيح ليلاً . حتى ظنت عجوز مجاورة . أن الرجل مجنون !!

وكان الفرزدق يركب ناقته ويطوف بالبساتين خالياً منفرداً . وأحياناً يطوف بشعاب الجبل . وبطون الأودية . والأماكن الخالية .

فيعطيه الشعر قياده !!

وقال أبو نواس : كنت أشرب . حتى أكون بين الصاحى والسكران . فأصنع الشعر وقد داخلتنى الأريحية والنشاط . وللناس فيما يعشقون مذاهب . وقد تكون مذاهبهم فجوراً !!

ونقل عن أبى تمام والبحترى أقوال من هذا الطراز . وهى كلها ملاحظات نفسية .

ويقول القاضى الجرجانى رحمه الله تعالى :

" والشعر لا يحبب إلى النفس بالمحاجة والمقايسة . وإنما يعطفها عليه القبول أو الطلاوة والرونق والحلاوة . وقد يكون الشئ متقناً . ولا يكون جميلاً مقبولاً !! "

وقد تجد الصورة الحسنة والخلقة التامة مقلية مقيتة وأخرى دونها مستحلاة موموقة ولكل صناعة أهل يرجع إليهم فى خصائصها .

وقد ردد عبد القاهر الجرجانى هذا الكلام من بعده مراراً . فأشاد كثيراً بالذوق والأحساس . وبين أن البلاغة والجمال فى النفس أكثر من كونهما فى الحس ومثل لذلك بقول بن لنكك :

إذا أخو الحسن أضحى فعله سمجا ∴ رأيت صورته من أقبح الصور

وهبه كالشمس فى حسن ألم ترنا ∴ نفر منها إذا مالت إلى الضرر

المعنى جيد والشعور صادق . ومهارة التعبير تامة كاملة !! وهذا كله قائم على أسس وطيدة .

وأسس النقد العربى . قد اكتسبت بقاءها لأنها مستنبطة من الأدب العربى نفسه وكانت قوية . لارتباطها بأدب قوى . وتبدو قوته فى كل زمان ومكان . لكل منصف .

أما محاولات سماسرة الاستعباد الثقافى أن يربطوا النقد العربى بالنقد الغربى . فهى محاولات طائشة ! وأكثر منها طيشا . محاولات تحدى نقد الشعر العربى التراثى . بالنقد الأوروبى المعاصر .

ولكن الفن الشعرى بصفة عامة . قد يلتقى فيه الأدب العربى مع غيره من الآداب الأخرى . كصدق الشعور . وصحة الفكر . وجمال التصوير . وقوة التأثير .

ومن المفيد فى نقد الشعر العربى . العناية بوحدة القصيدة . ووحدة الديوان . وفهم شخصية الشاعر . وشخصية الأدب كله فى بيئة من البيئات . أو عصر من العصور .

وكان النقد العربى الجاهلى مستمداً من البيئة التى يعيشها الشعراء والنقاد . فى ظروف يرى فيها الإنسان معتديا أو معتدى عليه فأنى له التفوق فى غير فنون القول !!

ومن المفيد أيضاً فى هذا المجال النقدى البعد عن العصبية أيا كان مصدرها فآفة الرأى الهوى . وكان النقد الجاهلى فطرياً صادقاً موجزاً ينم عن وضوح وبلاغة واقتدار . وهو أصدق تفسير للحياة الوثنية ونفسية الشعراء .

إن إدراك المشاعر النفسية هام جداً فى نقد الشعر . والعمل الأدبى بصفة

عامة . وأهميتها تبدو جلية فى الأدب من وجهته . الفنية والتاريخية .

والأدب أصل والنقد تبع له . ومن حيث كونه فنا له أصوله ومناهجه . وفيها يكمن الجانب الفنى ومن حيث ماضيه وأطواره . يبدو للناظر فيه . الدرس التاريخى ! وسيبقى النقد الأدبى منطقة مباحة للعلماء والفنيين على حد سواء !!

البيئة الشاعرة :

ليس صحيحاً ما يقال : من أن كل شئ فى حياة العربى فى الجاهلية رجع إلى الصحراء . ذلك رجع بعيد !!

إن نظام معيشة الناس فى الجاهلية . مردة جزئياً إلى البيئة . وهو فى صورته العامة يعود إلى الحياة الوثنية التى كان يحياها الجاهليون . ويقيمون عليها نظام معيشتهم وطريقة تفكيرهم . وأنواع مشاعرهم . وعاداتهم الكريمة وغير الكريمة . وإيمانهم بالخرافات والأباطيل .

إن الحياة الوثنية . والبيئة الصحراوية التى تساعد على الفوضى وفقدان النظام العام . هى التى جعلت الناس فى الجاهلية إما معتدين وإما معتدى عليهم كما قال شاعرهم :

وأحياناً على بكر أخينا ∴ إذا ما لم نجد إلا أخانا

وكان الجاهلى فى كلتا الحالتين محاربا شجاعا متفانيا . فخورا . إلى حد الغلو المردود !! معجبا بقبيلته أقصى غايات الأعجاب يقول :

إذا نزل الماء بأرض قوم ∴ رعينا وإن كانوا غصاباً

ويقول :

لا يبعدن قومى الذين هم ∴ سم العداة وآفة الجزر

النازلون بكـــل معتـــرك ∴ والطيبون معاقد الأزر

وكان العربى آنذاك . ندى الكف . سمح النفس . يعشق الكمالات والمثل العليا . يجود بأنفس ما لديه . ولكنه وثنى العقيدة مادى السلوك !!

وتراه مع ذلك لصا يهاجم جيرانه فيستاق أموالهم بلا رحمة ولا هوادة !! ولا مانع لديه من أن يسبى نساءهم وذراريهم !! فى وحشية بغيضة منكرة .

ومن ثم تبدو رحمة الله تعالى بالناس إذْ أرسل إليهم محمداً ﷺ بكتاب عربى مبين ﴿ **لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ** ﴾ " سورة إبراهيم : ١ " حقاً كانت الجاهلية ظلمات بعضها فوق بعض .

أمر الله تعالى فى هذه الرحمة المهداة . والنعم المسداه بقطع يد السارق . وجلد الزانى غير المحصن مائة جلدة . ورحمه إن كان محصناً .

وأمر بقتل القاتل . وتطبيق حد الحرابة على المغيرين على الناس فى توحش بين . فقال تعالى : ﴿ **إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنْ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ " سورة المائدة آية ٣٣ " .

وبهذا أنهى الإسلام حياة السلب والنهب وقضى على اللصوصية وقطع الطريق !!

وضرب الفواحش ضربات قاتلة ورغب فى الزواج المبكر لأنه طريق العفة والفضيلة !!

وصان الدماء والأموال والأعراض . ولله الحمد والمنة !!

كانت الحياة الجاهلية سلسلة من المتاعب والآلام وكان الجاهلى فى متاعبه وآلامه يُغَنِّي ليروح عن نفسه وعن ناقته المجهدة المكدودة ويحثها على المسير قال شاعرهم :

فَغَنِّها وهى لَكَ الفداءُ ∴ إنَّ غِناءَ الإبِلِ الْحَداءُ

أو كما قال الآخر :

وَيَزْعُمُ أَنَهُ نَقَّاد شِعرِىّ ∴ هُو الحَادِى وَلَيْس لَهُ بَعِيرُ

لأجل هذا أصبح هذا الحادى بالتدريج شاعراً .

وكان له فى رأى بنى قومه قوة سحرية خارقة وكانوا يجلون أشعاره ويخشونها فهى زينة الحياة . ومفخرة الألسنة وكانوا ينسبون الشاعر إلى أساطير وخرافات منها أنه يتلقى وحياً وإلهاماً من الشياطين .

يقول حسان بن ثابت رضى الله عنه " فى الجاهلية " :

إِذَا مَا تَرَعْرَعَ فِينَا الْغُـــلاَمْ ∴ فَذَاكَ يُقَالُ لَهُ مَــنْ هُوَه

وَلِى صَاحِبُ مِنْ بَنِى الشَّيْصَبَانِ ∴ فَطَوْرًا أَقُولُ وَطَوْراً هُوَه

ويقول :

إنّى وكُلُّ شَاعِرٍ مِن البَشَر ∴ شيطَانَهُ أُنْثى وشَيْطَانى ذكرْ

وكان الهجاء له وقع أليم على النفوس وبخاصة إذا تناول الأعراض !!

وظل هذا الشعور مسيطراً على الناس حتى نهاية العصر الأموى ولكنه استمر بعد ذلك إلى الآن !!

وتخيل الناس كثيراً من القوى الخفية التى تحرك الشعراء فاعتقدت غطفان بهذه القوى فى بشامة بن الغدير . وهوازن فى دريد بن الصمة . وقضاعة فى زهير بن جناب الكلبى .

وكان الناس ومايزالون ينظرون إلى السلامة من السب والشتم على أنها من أجل النعم !!

التأثير النفسى للشعر :

ظل التأثير النفسى للشعر قوياً فى عصور الجاهلية وصدر الإسلام وبنى أمية . وقد تحامى الناس الشعراء الهجائين وخافوا منهم خوفاً شديداً فى العصر الجاهلى وفى عصر المخضرمين وبنى أمية لأن الناس يحفظون أشعارهم بما فيها من خير وشر .

وكان الممدوحون يتفاخرون بما قيل فيهم من مديح . على حين يتوارى المهجوون حياء وخجلاً . هذا الراعى النميرى (عبيد بن حصين) هَاجى جريرا مدة غير قليلة فاستطاع جرير أن يخمله ببيت واحد هو قوله :

فُغُضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ ∴ فَلاَ كَعْباً بَلَغْتَ وَلاَ كِلاَبَاً

ومع أن هذه دعوى بلا دليل فقد ألحقت ببنى نمير ضرراً بليغاً .

وكان بنو نمير يتفاخرون بنسبهم هذا قبل هذا البيت !! فأصبحوا بعده يتوارون منه خجلاً وينتسبون إلى جدهم الأعلى عامر بن صعصعة ويتجاوزون أباهم القريب نميرا ... فراراً مما وُسِمَ بِه لأحساسهم الفطرى بما ألحقه بهم جرير من هوان !! كانت للشعر يومئذ قوته الساحرة فى الرفع والضعة !! .

مرت امرأة ببعض مجالس بنى نمير فأداموا النظر إليها . فقالت قبحكم الله يابنى نمير . ماقبلتم قول الله تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ... الآية ﴾ ولا قول الشاعر :

فَغُضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ ∴ فَلاَ كَعْباً بَلَغْتَ وَلاَ كِلاَبَاً

والقصيدة التى منها هذا البيت سميت الفاضحة . وسماها جرير الدَّمَّاغَة .

وعلى عكس هذا شهرة عرابة الأوسى ببيتين للشماخ بن ضرار وقد بذل له فى سنة شديدة وسق بعير تمراً فقال :

رَأَيْتَ عرَابَةَ الأوسىَّ يسْمو ∴ إلى الخيراتِ منقطع القرين

إذا مارايـــــة رُفعتْ لِمَجْدٍ ∴ تلَقَّاهَا عَرابـــــة باليَمين [1]

ومن الذين أخملهم الشعر :

---

(١) العمدة لابن رشيق ج ١ ص ١٩ طبعة ١٩٢٥ م .

الربيع بن زياد العبسى كان من جلساء النعمان بن المنذر . أحد ملوك الحيرة !!

وكان عياباً فحاشاً سَبَّاباً لايسلم منه أحد من جلساء النعمان . ولا غيره .

فرمِىَ من لبيد بن ربيعة العامرى بما أسقط منزلته ! وكان لبيد يومئذ غلاماً مراهقاً . فنافسه وقد وضع الطعام بين يدى النعمان وتقدم الربيع وحده ليأكل معه على عادته .ولم يلتفت إلى لبيد .

وكان الربيع بن زياد (الكامل) واحدا مِنْ من أربعة إخوة (عمارة الوهاب ، أنس الفوارس ، قيس الجواد والربيع : سئلت أمهم فاطمة بنت الخرشب الأنمارية . أى بنيك أفضل ؟ فقالت : هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها !!

فإذا به يقول مرتجلاً :

يَاربَّ هَيْجاهِىَ خَيْر مِن دَعَهْ ∴ نحن بنُو أُمِّ البنين الأرْبَعَـة
وَنَحْنُ خَيْرُ عَامِر بن صَعْصَعَة ∴ المطعمون الجفنة الْمدَعْدَعَة
وَالضَّارِبُونَ الهامَ تحْتَ الخيْضَعَة ∴ مَهْلاً أَبَيْتَ اللَّعْن لا تأكل مَعَه

فقال النعمان : ولِمَ ؟

فأجاب لبيد إجابة ألحقت بغريمه خزياً واضحاً ولم يتعفف ولم يتورع بل قال ما يعف القلم عن كتابته !! مع أن الربيع هذا وأخاه عمارة قد مُدحاَ من آخرين مدائح رائعة كما رثيا بعد موتهما بعظيم الرثاء كقول بعض " الطائيين " فى رثائهما :

فَإِنْ تَكُن الحَوادِثُ جَرَّبَتْنِى ∴ فَلم أرَ هَالِكاً كابْنَى زِيَـاد
همـا رُمْحَانِ خطيَان كانَا ∴ مِنَ السُّمْرا لمثقفة الصِّعَادِ
تُهَالُ الأَرضُ إنْ يَطآ عَلَيْهَا ∴ بِمثلهما تُسَالِـمُ أو تعادِى

ويروى بروايات !! فرفع النعمان يده متقززاً ولم يأكل بعد الشين الذى ذكره لبيد . وقال : ماتقول : ياربيع ؟ فقال : أبيت اللعن يامولاى . كذب الغلام ! فقال لبيد : مُرْهُ فليجب ! فقال النعمان : أَجِبْهُ ياربيع !! فقال : والله لما تسومنى من الخسف أشد علىّ مما عضهنى به الغلام !! فحجبه بعد ذلك وسقطت منزلته وأراد الاعتذار .. فقال له النعمان :

قَدْ قِيلَ مَا قِيلَ إنْ صدْقاً وَإنْ كذِباً ∴ فَمَا اعْتِذَارُكَ مِنْ قَوْلٍ إذَا قِيلا

هذه صورة للتأثير النفسى للشعر .

مدح الشىء وذمُّهُ :

كان حسان بن ثابت فى الجاهلية كالنابغة الذبيانى كل منهما شاعر رحالة . مدح المناذرة والغساسنة وغيرهما .

يقول حسان رضى الله عنه : أتيت جبلة بن الأيهم الغسانى وقد مدحته فقال لى ياأبا الوليد : إن الخمر قد شغفتنى فاذممها لعلى أرفضها !! فقال حسان :

ولولا ثلاث هُنَّ فى الكأس لم يكن	∴	لها ثمن من شارب حين يشرب

ولولا ثلاث هن فى الكأس أصبحت ∴ كأنفس مـــال يستفاد ويطلب
أمانيها والنفس يظهر طيبهـــا ∴ على حزنها والهَمُّ يسلى فيذهبُ

فقال جبلة . لاجرم . لا تركتها أبداً .

وهكذا نرى الشاعر الفحل يمدح الخمر ويذمها تبعاً لرغبة الممدوح . وترى الممدوح شديد التأثر بما يقول شاعره سلباً أو إيجاباً . مدحاً أم قدحاً . حباً أم بغضاً .

وأفضل من هذا التردد قول قيس بن عاصم :

رأيت الخمر جامحة وفيها ∴ خصال تفسد الرجل الحليما
فلا والله أشربها حياتـــى ∴ ولا أسقى بها أبـداً نديما
فإن الخمر تفضح شاربيها ∴ وتجشمهم بها أمراً عظيما

وهذه فكرة جيدة والسبك والحبك موجودان فى جميع الأبيات . والرجل ثابت على بغضه المعلل لأم الخبائث .

وجبلة بن الأيهم هذا قد لحق بالروم وتنصر بسبب تطبيق عمر رضي الله عنه العدالة الإسلامية عليه عندما صك مسلما فى الطواف . ثم ندم على تنصره فقال :

تنصرت الأشراف من عار لطمة ∴ وماكان فيها لو صبرت لهـا ضرر
تكنفنـــى فيها لجاج ونخوةُ ∴ وبعت بها العين الصحيحة بالعور
فياليت أمـــى لم تلدنى وليتنى ∴ رجعت إلى القول الذى قال لى عمر
وياليتنى أرعى المخاض بقفرة ∴ وكنت أسيرا فى ربيعة أو مضر

وقال عمر رضى الله عنه : أخزاه الله تعجل فانية اشتراها بباقية

فما ربحت تجارته !!

وقال شاعر للنابغة :

تطيب نفوسنا لولا قذاها ∴ ونحتمل الجليس على أذاها

فقال النابغة :

قذاها أن صاحبها بخيل ∴ يحاسب نفسه بكم اشتراها

وتلك من أفاعيل الشعر فى مدح الشيء وذمه . وفقا لأهواء المادح والممدوح .

الصراع الجاهلى بين اللسان والسنان :

قال الجاهليون الشعر فى جميع أغراض الشعر . فى الغزل . ووصف الطلل الدارس . ووصف البيئة التى عاش فيها الشعراء . ووصف المعارك . والهجاء . والمديح والرثاء . وقد شاركت المرأة بوضوح فى فن الرثاء .

فقد رثت المرأة العربية زوجها وأباها وأخاها .

ولعل الهجاء أشهر الأغراض الشعرية التى اعتادها الجاهليون . وذلك لضراوة العداوة بين القبائل . وكان الشعراء يجرحون خصومهم بقسوة وضراوة مؤلمتين فيشككون فى الأنساب . ويسبون الأعراض ويسقطون المروءات . وكأن الشياطين هى التى كانت تلهمهم تلك المعانى الموجعة كما كانوا يزعمون .

ولهذا كانت المرأة خصوصاً تحس بالضياع إذا مات أبوها أو

أخوها أو زوجها أو ابنها تقول فاطمة بنت الأحجم ترثى أباها :

قد كنت لى جبلا ألوذ به ∴ فتركتنى أضحى بأجرد ضاحى

ومن هذا القبيل رثاء الخرنق لأخيها طرفة بن العبد ورثاء الخنساء لأخيها صخر تقول الخنساء :

قد كان خالصتى من كل ذى حسب ∴ وقد أصيب فما فى العيش أوطار

وقد ألف العرب فى جاهليتهم الديانة الوثنية ورفضوا النصرانية التى كانت فى نجران . واليهودية التى وصلت إلى يثرب لأنهم رأوا وثنيتهم أقل شراً من وثنيات اليهود والنصارى على الرغم من كونهم أهل كتاب . ولكنهم حرفوا وبَدَّلوا .

واشتعلت حروب بين القحطانيين والعدنانيين كحرب أسد وكندة . وبين العدنانيين أنفسهم من ربيعة*ومضر كحرب البسوس وحرب داحس والغبراء .

هذه الحياة الحربية أثارت المشاعر والأحاسيس فتعدد الشعراء وتكالبوا وأصبحوا بمكانة عالية من التكريم والتبجيل لأسباب شتى فى الهجوم أو فى الدفاع .

أصالة النقد العربى :

لايعرف على جهة اليقين أول من قصد القصائد . وإن قيل إنه المهلهل بن ربيعة أو امرؤ القيس – أو عبيد بن الأبرص . أو غيرهم ! وهم جميعاً متقاربون . ولعل أقدمهم لا يسبق الأسلام بقرن تقريباً .

وقد عرف الناس الشعر الجاهلى مكتملاً فى المعلقات وفى شعر عشرات من الشعراء الجاهليين الذين أدركوا الأسلام ولم يسلموا . أو ماتوا قبله بقليل أو أسلموا فعدوا من المخضرمين ، ونشأ الشعر العربى أصيلاً فى نهجه وأغراضه . وروحه وأعاريضه وأضربه .

وكانت نواة الشعر الحداء خلف الناقة والبعير .

ثم انتهى إلى القصيدة المحكمة وبينهما مسار طويل للنقد الشعرى يدعو إلى الصحة والجودة والأحكام والأصلاح والتهذيب فى وحدة الروى وحركته والتصريح والنسيب وبكاء الأطلال وحسن الابتداء وحسن الانتهاء وحسن الخاتمة .

وهذا الاصلاح وذلك التهذيب هما جوهر النقد الأدبى .

وإذا غابت عنا طفولة الشعر العربى فقد غابت معها طفولة النقد أيضاً . وكان الشعراء نقاداً وكان رواة شعرهم كذلك .

وتلاقى الشعراء فى الأسواق الشعرية كسوق عكاظ ومجنة وذى المجاز . ينقد بعضهم بعضا . وكانت ملاحظات بعضهم على بعض هى أوليات النقد الأدبى .

كانت عكاظ سوقاً تجارية يباع فيها ويشترى وجاءها التجار وطالبو الحاجات من جميع الجهات من كافة القبائل للتجارة أو للصلح أو للمعاهدات أو للتفاخر أو لأداء حقوق القادة على أتباعهم كما قال الشاعر :

لك المِرباع منهَا والصَّفَايا ∴ وحكمك والنشِيطةُ والفُضُولُ

وكانت مع ذلك كله بيئة نقدية يلتقى فيها الشعراء كل عام يقولون وينقدون .

وكان الشاعر الجاهلى العملاق النابغة الذبيانى من أعلام الشعر والنقد فى سوق عكاظ ، استمع قصيدة الخنساء :

قذى بعينك أم بالعَيْن عوَّارُ ∴ أَمْ أَقْفَرتْ مُذْ خَلَتْ مِنْ أَهْلِهَا الدَّارُ

وقد كانت تضرب له قبة جلدية حمراء يستمع فيها إلى أشعار الشعراء ويحكم بينهم .

أنشده الأعشى مرة ، ثم حسان بن ثابت ، ثم الخنساء التى قالت فى رثاء أخيها صخر :

وَإِنَّ صَخْراً لوالِينَا وَسَيِّدُنَـــا ∴ وَإِنَّ صَخْـراً إِذا نَشتو لَنَحَّارُ

أَغرّ أَبْيَض تَأتمّ الهُداةُ بِـــه ∴ كَأَنَّه عَلَمٌ فِى رَأسه نَـــارُ

مَشى السبنتى إلى هَيْجَاء مُعْضِلةٍ ∴ لَهُ سِلاَحَـانِ أَنْيَابٌ وأَظْفَارُ

لم تره جَارة يمْشـــى بساحَتها ∴ لِريبَة حين يُخْلى بَيْتَهُ الجارُ

لاَ يَمْنَعُ القَومَ إنْ سَألُـوه خِلْعَتَهُ ∴ وَلاَ يُجَاوِزُهُ بالليل مُـــزَّارُ

ليبكه مقتر أفنـــــــى حريبته ∴ دهر وحالفــه بؤس وإقتارُ

جلـــد جميل المحيا كامل ورع ∴ وللحروب غداة الروع مسعار

وإن صخرا لمقدام إذا ركبـــوا ∴ وإن صخرا إذا جاعوا لعقارُ

والقصيدة عجيبة حقا . تعجب النابغة وغير النابغة إلى يوم الناس هذا .

وما بعده إلى آخر الياالى والأيام وأنشد الأعشى قصيدته :

ما بُكَاءُ الكبيرِ بالأَطْلاَلِ ∴ وَسُؤَالِي وَمَا يُرِدُّ سُؤَالِي

فقال لها النابغة : لولا أن أبا بصير (الأعشى) أنشدنى لقلت إنك أشعر الأنس والجن . فالأعشى إذن هو أشعر من بالسوق وتليه الخنساء . وقال لها : مارأيت أنثى أشعر منك ! فقالت له والله ولا رجلا . (١)

وظن حسان بن ثابت أن النابغة يومئذ قد جامل الخنساء أو آثر شعر البادية على الحاضرة أو شاعرة مضر على شاعر اليمن . أو وضع من شاعر نافسه عند المناذرة والغساسنة .

فذلك كله وارد وغير بعيد والنفس الأنسانية هى هى فى كل زمان ومكان .

فأما أن يُسْأل حسان عن حجته فى تفضيل نفسه فيجيب بقوله :

لَنَا الْجَفَنَاتُ الْغُرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحى ∴ وَأَسْيَافنا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدةٍ دَمَا

وَلَدْنَا بَنِى الْعَنْقَاءِ وابنى مُحرِقٍ ∴ فَأَكْرِمْ بِنَا خَالاً وَأَكْرِمْ بِنَا أبنما (٢)

فهذا مالا يقبل من شاعر مثل حسان بن ثابت رضى الله عنه الذى أصبح شاعر رسول الله ﷺ بعد سنوات من تلك الحادثة الموجعة . ثم يقول للنابغة أنا أشعر منك ومنها ومن أبيك .

وينهال النابغة والخنساء معا فى طعن هذين البيتين . فقد قال

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ج١ ص ٣٠٣ .

(٢) العنقاء ثعلبة بن عمرو . ومحرق أول من عاقب بالنار . ومافى ابتما زائدة .

الجفنات وترك الجفان . ويلمعن وترك يُشْرِقْنَ . وقال الغرُّ . والبيض أنسب منها . وقال بالضحى . والدجى أنسب بالمقام أيضا . والأسياف جمع قلة ويجرين أبلغ من يقطرن .

وقال لحسان : يابن أخي إنك لا تحسن أن تقول مثل قولى :

فإنك كالليل الذى هو مدركى ∴ وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

ولقد حاول بعض النقاد التشكيك فى القصة لأن الذهن العربى الجاهلى لايعرف جموع القلة من جموع الكثرة من جموع التصحيح . ويزعم أن ذلك كله من آثار علم المنطق .

وهذا بعد عن الصواب . وتأثر شديد بالمشككين الغربيين فى كل شىء دال على الأصالة العربية . لأن العرب الجاهليين يعرفون ذلك كله معرفة فطرية أخذت منها القواعد فيما بعد .

والقول بتأثر القواعد العربية بعلم المنطق ليس صحيحاً على الأطلاق . وثقافة البشر عالمية لا وطن لها فإن بدت الحقائق جلية قبل علم المنطق شككوا فيها لأنهم لا يستطيعون أن يقولوا إن النابغة والخنساء كانا متأثرين بأرسطو وأفلاطون . إذن فليشككوا فى القصة من أصلها . وهذا لجاج مهزول غير مقبول .

ويشكك عبيد الفكر الغربى فى القصة زاعمين أنها لو صحت لاستخدم العرب أمثالها ضد القرآن الكريم . وهذا أيضا شرود طائش .

فمن يستطيع أن يثبت أن القرآن الكريم قد احتوى على مفردات

أو جمل غير مناسبة للمقام على النحو الذى حدث من حسان مثلاً ؟ إنه لا أحد على الرغم من اتساع الأكاذيب . ولو عرف خصوم النبوة القدامى وهم أكثر فصاحة من خصومها الجدد مغمزاً بلاغياً فى القرآن لذكروه . فسكوتهم دليل شاهد بالأعجاز البيانى فى القرآن الكريم وكان نقد النابغة لحسان صورة لنقد المفردات والأساليب .

النقد العروضى :

إن عدم التزام الشعراء بأصول وفروع علم العروض والقوافى عيب يجب أن ينزه عنه الشعر .

وقديما عاب الناس على النابغة الذبيانى وبشر بن أبى خازم الأقواء فى شعريهما . والأقواء عيب عروضى وهو :

اختلاف حركة الروى فى القصيدة الواحدة ولم يستطع أحد أن يصارح النابغة بما وقع فيه [1] ثم جاء النابغة إلى يثرب (المدينة المنورة بعد الأسلام) فقيل لمغنية أسمعيه خطأه مرتلاً . فأسمعته خطأه غناءً مرتلاً فأصلحه وذلك فى قوله :

أَمِنَ آل ميَّة رَائِح أَوْ مُغْتَدى ∴ عَجْلاَنَ ذَا زَادٍ وغَيْرَ مُزَوَّد
زَعَمَ البَوَارِحُ أَنَّ رحْلَتنَا غداً ∴ وَبذَاكَ حدَّثنَا الغُدَاف الأَسْوَدُ

ويروى خبرنا ...

ففطن ولم يعد إلى ذلك ثانية . وقيل إنه وقع فى إقواءٍ آخر قبل

---

(١) الموشح للمرزبانى ص ٣٩ .

هذا فى قوله :

سَقَطَ النَّصيفُ ولَمْ تَرُدْ إسْقَاطَهُ ∴ فَتَنَاوَلَتْــهُ واتَّقَتْــنَا بِاليَدِ

بِمُخَضَّبِ رَخْــصٍ كــأَنَّ بَنَانَهُ ∴ عَنَمٌ يكادُ مِنَ اللَّطَافَةِ يُعْقَدُ

فأصلحه بقوله ... ∴ عَنَمُ عَلَى أَغْصانِهِ لَمْ يُعْقَدِ

وقال عنه إن فى شعرى لعاهة . ثم أصلحه بما سبق .

ويروى أنه قال : قدمت الحجاز وفى شعرى ضَعَة . ورحلت عنه أشعر الناس .

وأما بشر بن أبى خازم . فقد نبهه أخوه سوادة إلى ذلك العيب . فأصلحه . وقيل اسم أخيه سمير .

والأقواء أثر من آثار أوليات الشعر العربى ودليل على أن الشعراء لم يهتدوا إلى وجوب وحدة حركة حرف الروى إلا بعد أن تقدمت معرفتهم بالقريض .

وهذا دليل على تقدم ملكة النقد والتذوق عندهم . كانوا يعيبون المعيب وكانوا يستحسنون الحسن . يقول بشر :

ألم تَرَ أَنَّ طول الدَّهْرِ يُسلى ∴ ويُنْسى مِثل مَا نسيت جُذَامُ

وكَانُــوا قوْمَنَا فَبغَوْا عَلَينَا ∴ فَسقنَاهُمْ إِلــى البلد الشآمِ

ولما نبهه أخوه قال : تبينت خطئى ولست بعائد ...

وقال النابغة أيضاً :

قالت بَنُو عَامِرٍ خَالُوا بنى أَسَدٍ ∴ يَابُؤْسَ بِلْجَهْلِ ضَرَّارَ الأَقْوَام

ثم يقول :

تَبْدُو كواكِبه والشمس طَالِعَةُ ∴ لاَ النُّورُ نُورُ وَلاَ الأظْلاَمُ إِظْلاَمُ

والمراد : تاركوا بنى أسد أى اتركوهم .

وكان العرب يعرضون أشعارهم على رجالات قريش . فما قبلوه كان مقبولا . وما ردوه كان مردوداً . ولا عجب . . فرجالات قريش هم ملوك العرب .

قدم عليهم علقمة بن عبدة فأنشدهم قصيدته :

هَلْ ماغلمت وما استودعت مكتوم ؟

فقالوا : هذه سمط الدهر . ثم عاد فى العام الذى يليه فأنشدهم : (١)

طَحَا بِكَ قَلْبُ فِى الْحِسَانِ طَرُوبُ ∴ بُعَيْدَ الشباب عَصْرُ حَانَ مشيب

يُكَلِّفُنى لَيلَى وَقَدْ شَطَّ وَلْيُها ∴ وَعَادَتْ عَوَادٍ بَيْنَنَا وخُطُوب

فقالوا : هاتان سمطا الدهر (٢) وهذا تذوق محمود وصورة نقدية موجزة .

النقد الذَّاتى :

كان النقد الجاهلى ذاتيا موجزًا يغلب عليه التأثر وقلة التعليل

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ج ١ ص ٢٢٣ والموشح للمرزبانى ص ٥٩ .

(٢) السَّمْطُ الخيط مادام فيه خرز وإلا فهو سلك . والسمط أيضا واحد السموط وهى السيور التى تعلق من السرج . والمراد بسمط الدهر : حليته . مختار الصحاح مادة " سمط " .

ولكنه على وجازته دال على كل مايريد العرب معرفته من النقد .

وقد سمع طرفة بن العبد الذى قيل بشاعريته العملاقة (أشعر الناس . الشاب القتيل والملك الضليل والشيخ أبو عقيل) سمع هذا الشابُّ القتيل ولم يجاوز الثمانية والعشرين من عمره القصير . خاله المتلمس ينشد بيته :

وَقَد أَتَنَاسَى الهَمَّ عِنْدَ احْتِضَارِهِ ∴ بِنَاجٍ عَلَيْهِ الصَّيْعَرِيَّةُ مِكْدَم

فقال طرفة : استنوق الجمل لأن الصيعرية سمة تكون فى عنق الناقة لا البعير . وهذا ليس من وضع الكلمات فى مواطنها اللائقة بها ... (والمكدم : الصلب أو الغليظ) .

وأخذ الناس على المهلهل بن ربيعة المبالغات الكاذبة التى تصل إلى حد الغلو البعيد كقوله :

فَلَولاَ الريحُ أَسْمَعَ مَنْ بِحجرٍ ∴ صَلِيلَ البيض تُقْرَعُ بالذّكُورِ

وقيل عنه : إنه أكذب بيت قالته العرب ! ، ورأى النابغة لبيداً بين أعمامه عند النعمان بن المنذر فقال له : يا غلام إن عينيك لعينا شاعر . أنشدنى فأنشده : أَلَمْ تَرْجع عَلَى الدمن الخَوَالى . . فقال له : أنت أشعر بنى عامر . زِدْنى . فأنشده : طللٌ لِخَوْلَة بالرسيس قديم . . فقال له : اذهب فأنت أشعر من قيس كلها .

واجتمع جماعة من شعراء تميم فى مجلس شراب وهم : الزبرقان ابن بدر . والمخبل السعدى ، وعبدة بن الطبيب . وعمرو بن الأهتم

قبل إسلامهم . فقالوا : نحن أشعر العرب ولو أن قوماً طاروا من جودة أشعارهم لطرنا .

فتحاكموا إلى ربيعة بن حذار الأسدى . أو ناقد آخر وقالوا له : أيّنا أشعر ؟ فقال : أما أنت ياعمرو . فشعرك برود يمانية تطوى وتنشر . وأما أنت يازبرقان فما أشبهك برجل أتى جزوراً فأخذ من أطايبها وخلطه بغير ذلك .

أو قال له : شعرك كلحم لم ينضج فيؤكل ولا تْرِك فينتفع به .

وأما أنت يامخبل فشعرك شهب من الله يلقيها على من يشاء من عباده .

وأما أنت ياعبدة فشعرك كمزادة أحكم خرزها . فليس يقطر منها شيء .

وهذه أحكام ذاتية عامة لا ينبغى أن تعاب لأن الناس يومئذ كانوا تقريبًا رواة شعر وحفظةً له ويعرفون المراد من هذه التشبيهات الناقدة حق المعرفة . وهذه الكلمات من شواهد النقد الذاتى فى الجاهلية . وبهذا يكون أشعرهم عمرو بن الأهتم ويليه عبدة بن الطبيب . ثم المخبل السعدى . وأخيرا الزبرقان .

وروى عن أبى عمرو الشيبانى الكوفى أن عمرو بن الحارث الأعرج الغسانى فضل حسان بن ثابت على النابغة . وعلى علقمة بن عبدة . وكانا حاضرين معه وأثنى على لامية حسان التى يقول فيها :

لِلّه دَرُّ عِصَابـــةٍ نَادَمْتَهُـــمْ ∴ يَوْماً بجلَّقَ فى الزَّمَانِ الأَوَّلِ

يَمْشُونَ فِي الحللِ المضَاعَفِ لسجُها ∴ مَشْى الجِمَال إلىَ الجِمَال البُزَّلِ

ودعاها البتارة (التى بترت المدائح قبلها) .

ولقَّبَ نُقَّادُ الشعر النمر بن تولب بالكَيِّسْ لحسن شعره . ولَقَّبُوا طُفَيْلاً الغَنَوِىَّ بطفيل الخيل لدقة وصفه إياها . وسموا قصيدة سويد ابن أبى كاهل التميمية وهى التى مطلعها :

بَسَطَتْ رَابِعةُ الحَبْل لنا ∴ فَوصَلْنَا الحبل منها ماتسع

وكل هذا يدل على اتساع دائرة النقد الذاتى فى الجاهلية [١] . وهذا ماكان يتطلبه الناس يومئذ .

المدارس الشعرية العريقة :

عرف الشعراء والنقاد الكبار فى الجاهلية مايشبه المدارس التى يتلقى فيها المعرفة التلميذ عن أستاذه . شعراً ونقداً .

فزهير كان راوية خاله بشامة بن الغدير . وكان مدينا له بشعره وحكمته، سأله يوماً أن يجعل له قسماً من ماله بعد وفاته . أسوة بابنائه . فقال له : حسبك شعرى ورثته عنى . وكذلك كان شأن الأعشى . والمسيب بن علس .

والأمر كذلك أيضا لدى الشعراء الذين تربوا فى بيوت الشعر فتعلم الأخلاف من الأسلاف فظهرت مثلا خصائص شعر بشامة بن الغدير وأوس بن حجر فى شعر زهير (ربيب أوس) وانتقلت إلى شعر كعب وبجير ابنى زهير ثم الحطيئة لأنه كان أحد رواة شعر زهير . وكانت

---

(١) وكان النقد الذاتى يومئذ أحكاماً عامة غير معللة . ولكنها كاملة الدلالة على الراد . نظرا لتمكن الناس يومئذ من الفصاحة والذوق السليم .

الملاحظات النقدية آنئذ تعتمد على الصياغة والمعانى من حيث الصقل والتلاؤم ومطابقة الكلام لمقتضى الحال ومناسبة الكلمة لجاراتها وأدائها للمعنى الذى قصد بها . وكونها قارة فى النظم غير قلقة ولا نابية لا تصك السمع ولا الذوق . لهذا عابوا تنافر الكلمة أو الكلام لأنه يؤذى السمع ويذهب بشىء غير قليل من روعة موسيقى الشعر كقول الأعشى :

وَقَد غَدوت إلى الحانوت يتبعنى ∴ شاوٍ مشَلٌّ شَلُول شُلشُلُ شَوِل

وكقول امرئ القيس :

وفَرْع يزين المتن أسود فاحم ∴ أثيث كقنو النخلة – المتعثكل

غدائره مستشزرات إلى العُلا ∴ تضل العقاصٌ فى مثنى ومرسل

وبهذا عُدَّ نقدا فى العصر الجاهلى كل مايتعلق بالأدب فى شكله أو مضمونه .

وقال الحطيئة يوما لكعب بن زهير :

قد علمت روايتى لأشعاركم آل البيت (الشعرى لا النبوى) فلو قلت شيئا تذكر فيه نفسك – يا ابن زهير – وتضعنى موضعا بعدك . فقال كعب :

فمن للقوافى شانها من يحوكها ∴ إذا ما ثوى كعب وقوَّزَ جرول

كفيتك لا تلقى من الناس واحدا ∴ تنخل منهـا مثلمـا تتنخـل

نثقّفُها حتى تلين متونهـا ∴ فيقصر عنها كـل مـا يتمثل

وكانت هذه الملحوظات تقوم على أثر الشعر فى الأحاسيس

والأذواق. والملهمون يتذوقون الشعر على قدر إحساسهم قوة وضعفا . وليس للناقد الذواق غير طبعه وذوقه .

ومن هذا المنطلق الذوقى فالخنساء أشعر من حسان . وحسان فى نظر عمرو بن الحارث الغسانى أشعر من غيره بقصيدته البتارة . وهذه الأحكام يفهمها العرب حق الفهم لقوة فطرتهم ورهافة أحاسيسهم وليسوا بحاجة إلى تفسير أو تعليل وإن كان التعليل أفضل .

ولا عيب فى هذا النقد الذاتى سوى عند الغربيين وعبيد الاستعباد الثقافى المهزومين الذيول المستغربين الذين لا همَّ لهم إلا الأنكار أو التشكيك .

النقد النفسى :

يقوم النقد النفسى على المشاعر والأحاسيس على النحو الذى حدث بين امرئ القيس وعلقمة – مثلا . كان الشاعر العملاق امرؤ القيس يبارز كل من يقول الشعر وبياريه ويماثله . ولا يتحاشى من أن يدعى الفضل عليه . ولما قيل : أينا أشعر ؟ " امرؤ القيس وعلقمة " .

أجاب امرؤ القيس غير مكترث " أنا " ولما طال الجدل بينهما . قال امرؤ القيس : فقل وانعت فرسك . وناقتك . وأقول وأنعت فرسى وناقتى .

فقال علقمة : إنى فاعل . والحكم بينى وبينك المرأة من ورائك . يعنى أم جندب امرأة امرئ القيس . [1] فى خيمتها خلف زوجها . وكان

---

(١) دلائل الأعجاز للشيخ عبد القاهر الجرجانى " فى آخره الرسالة الشافية فى الأعجاز ص٥٩١ تحقيق محمود شاكر " .

امرؤ القيس قد هرب من المنذر بن ماء السماء إلى جبلى طيئ (أجأ وسلمى) فأجاروه وزوجوه أُمَّ جندب . وعند الفجر . قالت له قم يافتى الفتيان مرَاراً . فلما قام سألها عن سبب إيقاظه ؟ فأجابت بعد ساعة إجابة مكشوفة ... (١) . وعرف امرؤ القيس ماأرادت امرأته . فسكت عنها على مضض .

وكان مشغولا بالأعداء لحرب ضروس ضد قتلة أبيه من بنى أسد الذين قال فيهم :

أرقت لبرق بليل أَهَلّ ∴ يضىء سناه بأعلى الجبل
بقتل بنـــى أسد ربهم ∴ ألا كل شىء ســواه جلل

بدأ امرؤ القيس مماتنة علقمة . فقال يصف فرسه بادئا كلامه بالغزل فى أم جندب :

خليلى مُرَّا بى على أم جُنْدَب ∴ نقض لُبَانَات الفؤاد المعذب
ألم تر أنى كلما جئت ∴ وجدت بها طيبا وإن لم تطيب

فلما وصل إلى ذكر الفرس قال :

فعقفى على آثارهن بحاصب ∴ وغيبة شؤبوب من الشدّ ملهب
فأدرك لم يعرق مناط عذاره ∴ يمــر كخذروف الوليد المثقب
فللزجر ألهوب وللساق درةّ ∴ وللسوط منه وقــع أخرج مهذب

---

(١) العقد الثمين فى دواوين الشعراء الثلاثة الجاهلين امرئ القيس وطرفة وزهير ص ٦٩ ومابعدها والموشح للمرزبانى ص ٧٦ ، ٧٧ ، ٢٨ : ٣٠ .

وقال علقمة :

ذهبت من الهجران فى كل مذهب ∴ ولم يك حقا كل هــذا التجنب
إذا ماركبنا لــم نخاتل بجنــة ∴ ولكن ننادى من بعيد ألا اركب
فأدركهن ثانيا مــن عنانــه ∴ يمر كمر الرائـــح المتحلب

فقالت أم جندب لعلقمة : أنت أشعر ويبدو أنها تأثرت كثيراً بالبيت الأول .

وقالت لزوجها : أنت قلت : فللزجر ألهوب وللساق دِرَّةُ .. البيت . لو فعل هذا بأتان لَعَدتْ . إنه موقف شديد الحساسية . عميق التأثير .

أحس امرؤ القيس بأن امرأته تهوى علقمة ! امرأة تدلى بشهادتها لصالح خصم زوجها ؛ فقال لها : ليس الأمر كما تقولين . ولكنك هَوَيْتَه !! موقف نفسى موجع حقاً !! . فغضب عليها . وطلقها . فتزوجها علقمة . فقال الناس : خلف امرأ القيس على امرأته . هذا هو الفحل !! ولقبوه بعد هذه الحادثة المؤلمة حقا لامرئ القيس بلقب . علقمة الفحل .

وعلى أى حال فإن هذا الموقف يُعَدُّ فى صالح امرئ القيس لأنه عربى جاهلى يأبى الدياثة ! فعندما راوده إحساس بهوى امرأته لرجل آخر . طلقها . وهذا مالا يصل إليه عبيد الغزو الثقافى الذين يرون أن الدياثة شىء عادىّ لا عيب فيه . وأنه نوع من الحرية الشخصية . وكبرت كلمة تخرج من أفواههم . إن يقولون إلا كَذِباً !! .

تأملات :

أقاويل هذه المرأة فى امرئ القيس وعلقمة عجيبة حقاً وقد قبلها نقاد . وأنكرها آخرون .

والقصة وردت فى الرسالة الشافية لعبد القاهر الجرجانى وفى بيان إعجاز القرآن للخطابى وفى كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى وفى مصادر كثيرة ! منها العمدة لابن رشيق القيروانى . وفى مقدمة ابن خلدون . وفى الموشح للمزربانى . وفى العقد الفريد لابن عبد ربه وغيرها .

وزوجة امرئ القيس استحسنت شعر خصم زوجها . وزوجها نقد استحسانها وردَّهُ إلى مشاعرها النفسية . وبعض الناس قبلوا صحة القصة . وبعض أنكرها .

والذين ينكرون القصة تصريحا أو تلميحا يرون أنها تشير إلى أسس علمية فى النقد الأدبى ما عرفها العرب إلا بعد معرفتهم منطق أرسطو وأفلاطون .

وهذا هراء فى غير محله . فامرؤ القيس والبيئة التى يعيش فيها بيئة شعرية فنية تعشق البلاغة وسحر البيان . ولا علاقة لها بأرسطو وأفلاطون .

يقول البحترى :

كلفتمونـــا حـــدود منطقكـــم ∴ والشعر يغنى عن صدقه كذبه

ولم يكن ذو القروح بلهج بالمنـ ∴ طـق ما أصلـه ومـا سببه
كـان المدام وصـوب الغمام ∴ وريح الخزامـى ونشر القطر
يعل بـه بـرد أنيابهـا ∴ إذا غـرد الطائر المستحـر

إن امرأ القيس إمام من أئمة المجيدين فى فن القريض على حين أن علقمة من المقلين ومقياس الشعر الجودة مع الكثرة وإن الذى ابتدأ القول أولاً هو امرؤ القيس . ثم تحدث علقمة من بعده فقال قصيدته وفيها توافق كثير مع ماقاله امرؤ القيس . (١)

فقصيدة امرئ القيس أصل . وقصيدة علقمة تكرار لها . وامرؤ القيس مشهود له بوصف الفرس والبعير . حتى قال النقاد : أشعر الناس امرؤ القيس إذا ركب . والأعشى إذا طرب وزهير إذا رغب والنابغة إذا رهب .

وفى الجاهليات كلها قديمها وحديثها تتعقد علاقة الرجال بالنساء حتى تصل إلى مثل قول الأعشى :

علقتها عرضا وعلقت رجلا ∴ غيرى وعلق أخرى ذلك الرجل
وعلقته أخيري ما يلائمهـا ∴ من أهلها ميت يهذى بها وهل

ومما يدل على صحة القصة وخطأ المرأة (أم جندب) أنها حاولت إهدار قصيدة زوجها من أجل بيت واحد . دون التفات منها إلى بقية الأبيات . ودون أية إشارة إلى قصائد أخرى لزوجها فى وصف

(١) تاريخ النقد الأدبى عند العرب لطه إبراهيم ص ٢٦ .

الخيل والإبل . وهى من عيون الشعر العربى فى جميع العصور كقوله :

وقد أغتدى والطير فى وكناتها ∴ بمنجرد قيد الأوابد هيكل
مكر مفر مقبل مدبر معا ∴ كجلمود صخر حطه السيل من عل

إن أم جندب تهوى علقمة وامرؤ القيس يهوى غيرها . ولعل هواها قديم لم يلبث أن التهب عند رؤية علقمة .

إن كُلاً من الشعر ونقده يقوم على الانفعال والتأثر والموهبة . فالشاعر تضطرب عاطفته بما حوله من أحداث ومظاهر مثيرة . والناقد يهيجه وقع النظم فى نفسه . والعربى حساس بطبعه . رقيق الحس يقع الكلام البليغ من نفسه موقعاً بالغ التأثير .

ومهما يكن من شىء فإن النقد العربى أصيل فى نشأته وتطوره ولم يتأثر بأرسطو ولا بأفلاطون . إلا فى العصر العباسى عند بعض النقاد كقدامة بن جعفر فى كتابه نقد الشعر . أما النقد العربى فى الجاهلية وصدر الأسلام فأصيل كامل الأصالة والحق أحق أن يتبع . وليس من العدالة فى شىء تجريد النقاد العرب القدامى من جهود مثمرة أفادت منها الحضارة الإنسانية بصفة عامة وكان النقد العربى يوم ذاك يعتمد على الذوق العربى السليم والمشاعر النفسية الجياشة ! .

الجزاء من جنس العمل :

إن الله تعالى عادل بين خلقه عدلاً مطلقاً مؤمنين كانوا أم كافرين . قال تعالى : ﴿ كُل امرئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِين ﴾ إن امرأ القيس

الوثنى يستحق هذا الموقف الموجع من زوجته أم جندب التى ظلمت نفسها وزوجها لاعتبارات نفسية واضحة وضوح الشمس المشرقة .

فالرجل قد ألف الفجور . . وعشق امرأة متزوجة . ولما هدده زوجها إذا به يوجه إليه تهديداً أشد يقول :

فأصبحت معشوقا وأصبح زوجها ∴ عليه القتام سيئ الظن والبال
يغط غطيط البكر شد خناقه ∴ ليقتلنى والمرء ليس بقتال
أيقتلنى والمشرفى مضاجعى ∴ ومسنونة زرق كأنياب أغوال
أيقتلنى وقد شغفت فؤادها ∴ كما شغف المهنوءة الرجل الطالى
وقد علمت سلمى وجاراتها ∴ بأن الفتى يهذى وليس بفعال
وماذا عليه إن ذكرت أوانسا ∴ كغزلان رمل فى محاريب أقوال

وكما شغف امرؤ القيس فؤاد أنثى متزوجة فقد شغف علقمة فؤاد أنثاه . والجزاء من جنس العمل حتى فى الجاهلية !! .

والفكرة فى البيت الأخير عند امرئ القيس الوثنى هى نفسها مايقوله عبيد الغزو الثقافى من أن الحديث مع المرأة والاختلاط بين الرجال والنساء شىء عادى لا عيب فيه . ويعلمون هم تماماً أنه مفتاح الشرور والآثام . فكأنهم يريدون أن يردوا الناس إلى عصور الظلمات . عصور الجاهلية . وما أشبه الليلة بالبارحة !!

فما عف امرؤ القيس فكان جزاؤه !! ماعفت امرأته !! من جنس عمله !! والجزاء من جنس العمل . ﴿ **وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدا** ﴾ .

وما أعظم الحكمة النبوية الشريفة : " عِفُّوا تعفف نساؤكم وبروا

آباءكم تبركم أبناؤكم " وقد يقال لامرئ القيس : " عَلَى نَفْسِها جَنَتْ بَراقِش " . وزواجه من أم جندب لم يبن على أساس سليم منه ولا منها فكان ماكان وانهار البناء .

من غرائب الحواس النقدية :

كان امرؤ القيس محاربا بفطرته التى فطره الله تعالى عليها . محاربا فى ميادين السنان وفى ميادين اللسان . يتحدى كل من يدعى إجادته فن القريض !!

فالتقى يوما مع الحارث بن التوأم البشكرى فكان بينهما هذا العراك البيانى العجيب !!

حدث محمد بن الحسن بن عاصم قال : أخبرنى محمد بن الصباح المازنى . قال : أخبرنى عبيد الله بن محمد الحنفى قال : أخبرنى محمد بن سلام . عن أبى عبيدة عن أبى عمرو بن العلاء قال :

كان امرؤ القيس ينازع كل من قيل عنه : إنه يقول الشعر فنازع الحارث بن التوأم البشكرى وبدأ امرؤ القيس المبارزة البيانية على أن يقول الشطر الأول من البيت . وأن يقول الخارث بن التوأم البشكرى الشطر الثانى .

وبهذا يكون قد صَعَّب عليه مهمته . فقد ألزمه بالوزن الذى يريد ، الزمه بمراعاة القافية التى يختارها له وبإعرابها وألزمه بتتميم المعانى . فإن جاءه بمبتدأ فقد ألزمه بالخبر المناسب ، وإن أتاه بمشبه فقد أوجب عليه إكمال الصورة البيانية بذكر المشبه المناسب وهكذا .

ودخل الحارث البشكرى هذه المبارزة بجنان ثابت ونفس مفعمة بالكثير من المعانى فإذا به يستمر فى السباق ولا يعيا ولا يتلعثم ولا يعجز حتى يقوم امرؤ القيس بنفسه بإنهاء حلبة السباق ويقسم بعدها ألا يناقض بعده شاعراً أبداً .

ولا عجب فقد رأى غريمه ناجحاً بجلاء فى إكمال المعانى . فإن جاءه بمعطوف عليه سارع بذكر المعطوف . وإن جاءه بمشبه سارع بقريحته المتوقدة ذاكراً له المشبه به المناسب وهكذا حتى النهاية . وهى مبارزة عجيبة مستوفاة فصلاً فصلاً ومصراعاً مصراعاً . والمبتدئ متمكن من الاختيار يسلك أى الطرق شاء . والمجيز مقصور القيد ممنوع من التصرف إلا فى الجهة التى يعدها له صاحبه . وقد نجح الحارث البشكرى فى التشبيه والتمثيل . . وأكمل المعانى بنجاح واقتدار فاستحق ثناء النقاد وآلى امرؤ القيس ألا يماتن بعده شاعراً أبداً .

قال امرؤ القيس : أَحَار تَرى بريقاً هَبَّ وَهْناً ∴

فقال الحارث : كنا مجوس تستعر استعارا

فقال امرؤ القيس : أرقت له ونام أبو شريح ∴

فقال الحارث : إذا ماقلت قد هدأ استطارا

فقال امرؤ القيس : فمر بجانب العبلات منه ∴

فقال الحارث : وبات يحفر الأكم احتفارا

فقال امرؤ القيس : فلم يترك ببطن السى ظبيا ∴

فقال الحارث : ولم يترك بعرصتها حمارا

فقال امرؤ القيس : كأن هزيزه بوراء غيب ∴

فقال الحارث : عشار وله لاقت عشارا

فقال امرؤ القيس : فلما أن علا شرجى أضاح ∴

فقال الحارث : وهت أعجاز ريقه فخارا

فقال امرؤ القيس : فلم تر مثلنا ملكا هماما ∴

فقال الحارث : ولم تر مثل هذا الجار جارا

* * * *

- **أحار** : منادى مرخم واصله أحارث . **بريقا** : تصغير برق . **تستعر** : يزداد سعيرها .
- **أرقت** : سهرت . **أبو شريح** : صاحبه . **استطار** : ازداد لمعانه .
- **العبلات** : مكان ذو شجر يعرف بهذا الاسم . **الأكم** : المرتفعات . جمع أكمة .
- **السىّ** : الوادى . **ظبياً** : غزالا . **العرصة** : الساحة .
- **الهزيز** : صوت السحاب والرعد . **والغيب** : السحاب . **العشار** : الناقة التى مضى لحملها عشرة أشهر . **وُلَّهُ** : مشتاقة . **شرجى** : مثنى شرج وهو الفرجة بين جبلين . **أضاح** : مكان . **وهت** : سقطت . **ريقه** : مطرهُ الصافى .

➢ **خار** : سقط . **الهمام** : السيد الماجد الكريم .

هذا وقد قيل عن امرئ القيس :

كان الرجل واثقاً من نفسه كل الثقة لا يخاف شاعراً ولا ناقداً . متمكناً من ناصية اللغة إلى أبعد الغايات . عبقرياً فى فن القريض إلى أقصى المجالات .

التقى يوماً بعبيد بن الأبرص . فتحداه كعادته . فأراد عبيد بن الأبرص أن يدخل حلبة المنافسة من الجانب الأيسر والأسهل . فاشترط على امرئ القيس أن يسأل وأن يقوم امرؤ القيس بالجواب ملتزماً بالوزن والقافية وإعراب القافية وإكمال المعانى والالتزام بإكمال الصور البيانية وهكذا على النحو السابق المألوف فى مثل تلك المعارضات البيانية العجيبة !! .. فقال عبيد : كيف معرفتك بالأوابد ؟ أجاب امرؤ القيس فى ثقة !!

أَلْقِ ما أحببت !! فقال عبيد :

ماحبة ميتة أحيت بميتها ∴ درداء ما أنبتت سنا وأضراسا

فقال امرؤ القيس :

تلك الشعيرة تسقى فى سنابلها ∴ فأخرجت بعد طول المكث أكداساً

فقال عبيد :

ما السود والبيض والأسماء واحدة ∴ لا يستطيع لهن الناس تمساسا

فقال امرؤ القيس :

تلك السحاب إذا الرحمن أرسلها ∴ روى بها من محول الأرض أبياسا

فقال عبيد :

ما المرتجاة على هول مراكبها ∴ يقطعن طول المدى سيرا وإمراسا

فقال امرؤ القيس :

تلك النجوم إذا حانت مطالعها ∴ شبهتها فى سواد الليل أقباسا

فقال عبيد :

ما القاطعات لأرض لا أنيس بها ∴ تأتى سراعا وما ترجعن أنكاسا

فقال امرؤ القيس :

تلك الرياح إذا هبت عواصفها ∴ كفى بأذيالها للترب كناسا

فقال عبيد :

ما الفاجعات جهارا فى علانية ∴ أشد من فيلق مملوءة باسا

فقال امرؤ القيس :

تلك المنايا فما يبقين من أحد ∴ يكفين حمقى وما يبقين أكياسا

فقال عبيد :

ما السابقات سراع الطير فى مهل ∴ لا تستكين ولو ألجمتها فاسا

فقال امرؤ القيس :

تلك الجياد عليها القوم قد سبحوا ∴ كانوا لهن غداة الروع أحلاسا

فقال عبيد :

ما القاطعات لأرض الجو فى طلق ∴ قبل الصباح وما يسرين قرطاسا

فقال امرؤ القيس :

تلك الأمانى تتركن الفتى ملكا ∴ دون السماء ولم ترفع به راسا

فقال عبيد :

ما الحاكمون بلا سمع ولا بصر ∴ ولا لسان فصيح يعجب الناسا

فقال امرؤ القيس :

تلك الموازين والرحمن أنزلها ∴ رب البرية بين الناس مقياسا

* * * *

درداء : ساقطة الأسنان . **الأمراس** : السيور . **المدى** : الغاية . **الأقباس** : جمع قبس وهو شعلة النار أو الضوء .

قال تعالى : ﴿ **إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى** ﴾ (سورة طه آية ١٠) .

وقال عنترة :

يتابع لا يبتغى غيره ∴ بأبيض كالقبس الملتهب

هذه صور للتذوق العربى النادر والنقد الجاهلى الصامت فلو أحس امرؤ القيس أو عبيد بشئ يعاب لدى صاحبه لنبه عليه !! ولكنهما سكتا . فدل سكوتهما على سلامة المفردات والأساليب ومطابقة الكلام لمقتضى الحال عند كل منهما . وقد يكون السكوت أبلغ من الكلام !! ..

وفى هذا النص العجيب الذى يندر أن يرى الناس له مثيلاً فى

المشارق أو فى المغارب بهذه السرعة وبهذا الحجم وبهذا الكم وبهذه القيمة الشعرية والنقدية . ترى عبيداً يسأل عن حبة ميتة . لا أسنان لها ولا أضراس . ولكنها أحيت ميتا ؟ .

وكان الجواب : إنها الشعيرة التى أحيا الله بها الأرض بعد موتها وجنى بها الزراع أكداساً من الحبوب !! وهى إجابة موفقة حقاً !! وعبقرية أكبر مما يقال عنها !!!

وجاء السؤال الثانى : عن سود وبيض متحدة الأسماء ولا يستطيع الناس مسَّ أيٍ منهما ؟

وجاء جواب العملاق امرئ القيس : إنها السحب ... !!

وجاء السؤال سريعاً : ما التى يرتجى الناس مراكبها . وهى سائرة على الدوام ؟

وكان الجواب أسرع : إنها النجومُ التى تبدو كالمصابيح !!

وسأل عبيد : ما اللائى يقطعن الأرض الموحشة ؟ ولا يعدن إلى الوراء ؟

أجاب امرؤ القيس : إنها الرياح تكنس الترب كنساً !!

وسأل عبيد : عن الفاجعات اللواتى هن أقوى من الجيوش ؟

أجاب امرؤ القيس : إنهن المنايا ! قاضية على الحمقى والأكياس معا !!

فسأل عبيد : عن أشياء أسرع من الطيور ؟

أجاب امرؤ القيس : تلك الجياد . وفرسانها أحلاس لها فى الحرب !!

فسأل عبيد : عن أشياء تقطع المشارق والمغارب فى لحظة ؟

أجاب امرؤ القيس : إنها الأمانى ! تشرق وتغرب كما تشاء !! .

فسأل عبيد : عن حكام لا تسمع ولا تبصر ولا تنطق ؟

أجاب امرؤ القيس: إنها الموازين !!! والرحمن رب البرية أنزلها لتكون بين الناس مقياساً .

وهذه صور للنقد الجاهلى فلله در امرئ القيس من شاعر عملاق . وكان نقد الجاهليين موجزا ذاتياً مطابقاً لأحوال سامعيه الفصحاء وهم يعرفون العلل والأسباب وإن لم يصرحوا بها !! .

وحقاً كان هذا النقد عملاقاً يعبر عن مواهب فطرية ومهارات تعبيرية بالغة التأثير فى كل العصور .

وكانت أحاسيس الشعراء منبئة بجلاء عن عقول وأذواق يعز مثيلها فى جميع الأزمنة والأمكنة والأيام والعصور .

إن هذه المواهب الفطرية .. من صنع الله الذى أتقن كل شىء ﴿**يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا**﴾ .

بيد أن المواهب الذاتية وحدها قد يعتريها الظلام إذا بعدت عن هدى السماء تضر صاحبها ولا تنفعه !!

وهذا مايشاهده الناس فى الوثنيات قديمها وحديثها . ونعم الله تعالى بحاجة إلى معرفة المنعم . جل فى علاه إنها بحاجة إلى الشكر حتى تدوم .

إذا كنت فى نعمة فارعها ∴ فإن المعاصى تزيل النعم

وداوم عليها بشكر له ∴ فإن الأله سريـــع النقم

وقديما قيل :

وأكرم مال الفتى لبه ∴ وذو اللب يكره إنفاقه

إن المواهب الفطرية ذات دلالة واضحة على عظمة أصحابها وذات دلالة أوضح على عظمة العزيز الوهاب .

" يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم يهدى الله لنوره من يشاء . . ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور . والله يقول الحق وهو يهدى السبيل " .

أ.د/ علي البدري